وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد خيضر – بسكرة –
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
قسم العلوم الاجتماعية
شعبة: الانثروبولوجيا

دروس في :

حقول الانثروبولوجيا

موجهة الى طلبة السنة الاولى ماستر

تخصص : انثروبولوجيا اجتماعية وثقافية

تقديم:

الدكتور: الطيب العماري

السنة الجامعية 2020 - 2021

الأنثروبولوجيا الدينية

مفهوم الدين:

يعد مفهوم الدين من أكثر المفاهيم التي دار حولها جدال ونقاش كبيرين واختلافات عديدة في التعريف، ورغم اجتهاد علماء الاجتماع والانثروبولوجيا لإيجاد مفهوم دقيق وموحد له فقد فشلوا في ذلك وراحت تفسيراتهم تنطلق من تصورات وخلفيات عديدة.

ولعل أهم هذه التفسيرات لـ: أميل دوركايم الذي يعتبر الدين شكلا من أشكال إسقاط للتجربة الاجتماعية، فلا وجود لظاهرة دينية خالصة، فالظاهرة الدينية هي دائما ظاهرة تاريخية، اجتماعية، ثقافية ونفسية (...)[1].

إذن فدوركايم يعتبر الدين كحاجة اجتماعية ضرورية لتحقيق التعاون والتكافل في إطار ما يعرف بالتضامن الميكانيكي خاصة عند المجتمعات المسماة "بدائية" أين يكون التقسيم الاجتماعي للعمل بسيط وتكون للدين القدرة على دمج أفراد المجتمع. لكننا نرى الدين لا يصبح "حاجة اجتماعية" عند المجتمعات "المتقدمة" والتي تمتاز بأشكال معقدة وموسعة للتقسيم الاجتماعي للعمل ويسودها نمط "التضامن العضوي"، وعندما يصبح العلم وحده الأساس الذي يحكم هذه المجتمعات "المتقدمة" وليس الدين. ويذهب جميس فريزر J. Frazer ومعه تايلور Tylor إلى أن الدين يقوم على فكرة عبادة الأرواح الطبيعية أو أرواح الأفراد، أي على أساس الاعتقاد بوجود قوى غيبية مشخصة.[2]

لقد تغيرالحقل الديني شكلا ومضمونا، وأصبح الدين موضوعا من مواضيع المعرفة بعدما كان المنافس القوي لها، لم يحدث بسهولة وإنما حدث نتيجة تغيرات اجتماعية وسياسية عميقة وفي نفس الوقت وبتفاعل معها، نتيجة تغيرات على مستوى المعرفة (...) كل هذا جعل هناك تراجعا للدين، نلمس ذلك بصورة واضحة في تهميش الكنيسة وفقدانها لسلطتها الدنيوية وفصلها عن الدولة[3] دعا كل من"دوركايم"، ومن قبله "سان سيمون"، بضرورة إزالة ما يسمى "الدين التقليدي". وتعويضه "بدين الإنسان" عند الأول و "المسيحية الجديدة" عند الثاني، والبحث عن دين جديد حامل للقيم الإنسانية السامية، لا يتطلب أي كنيسة ولا أي تنظيم، ديانة جديدة مؤسسة على مثل وقيم جديدة (...) إنها "ديانة تعويضية" عند فيبر (weber) كانتصار العقلانية وفقدان العالم لسحريته وغربته إذا هناك تحول في العقيدة، وفقدان العالم لسحريته وغربته، لا يعني عند فيبر نهاية الدين، ولكن ظهور أشكال جديدة للتدين، تغزو المجال الاجتماعي الذي أصبح متحررا من وصاية الديانات التاريخية (...)، ومن هنا اختصرت الظاهرة الدينية

---

[1] Mircea Eliad, **La mostalgie des origines**, ed: Gallimard, 1971 (P41-48)

[2] نبيل محمد توفيق السمالوطي، **الدين والبناء الاجتماعي**، الجزء 2، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، الطبعة الأولى،جدة,المملكة العربية السعودية, 1981، ص24–25.

[3] رشيد شقير، حول علمانية الدولة الحديثة" ,**مجلة الوحدة** , العدد 13. أكتوبر 1985 (ص 70، 79)

في مستوى المعتقد والقناعة الروحية الفردية، مكتفية بالبعد النفسي لتحليل الظواهر ذات الأصل الديني، وهذا ما يفسر خاصة تركيز علم الاجتماع الديني الانجليزي على المعتقد الجماعي، ونوعية الأنساق الرمزية المشتركة، وكان أيضا اهتمام علم الاجتماع الفرنسي بالممارسة الروحية الجماعية والعلاقة الممكنة بين الدين والمجتمع (...)[4]ولكن هل يمكن فعلا التحدث عن تراجع للدين؟ وهل باستطاعة العلم والنظريات الوضعية أن تملأ وظائف الدين التي ليست مجرد وظائف معرفية، عن ماهية الإنسان وعن مكانته في الكون؟

لقد عرفت أطروحات ونظريات تراجع أو زوال الدين في مقابل تقدم العلم في السنوات الأخيرة إعادة نظر وأثبتت الدراسات الحديثة "الحاجة إلى الدين".[5] يقول "ماكس نوردو Nordou : "إن الشعور الديني هذا الإحساس أصيل يجده الإنسان غير المتدين، كما يجده أعلى الناس تفكيرا وأعظمهم حدسا وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية وستتطور بتطورها وستتجاوب دائما مع درجة الثقافة العقلية التي تبلغها الجماعة"[6] ويذهب أرنست رينان E. Renan في دراسة له في تاريخ الأديان إلى :"إنه يمكن أن يضمحل كل شيء، نحبه، وأن نبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي، الذي يريد أن يحصر فكر الإنسان في المضايق الدينية للحياة الأرضية"[7]

وهذا ما يؤكده أيضا الأستاذ محمد أركون بقوله:"إن الخطاب الديني بتحديده الألسني والسيميائي بجيش الأسطورة والرمز والحكمة والمجاز وحكايات التأسيس وهذا ما يؤمن له خصوبة معنوية (سيمانتية) لم تستنفذ بعد على الرغم من مرور قرون عديدة من الشروح والتفسيرات والقراءات، أما الايدولوجيا (والنظريات) الحديثة فهي ذات طموحات ومزاعم عملية، أنها تستعمل مفاهيم غامضة وغير محددة، ولكن هذه المفاهيم و(الشعارات) سرعان ما تستنفذ وتكشف عن فقرها السيمانتي أو المعنوي"[8]

ومن هذا التقديم يمكننا القول أن تهميش وإبعاد الدين كمفسر ومرجعية للكثير من تصرفاتنا وسلوكياتنا، والظواهر المحيطة بنا أمر سخيف، لأنه في الواقع كلما ازداد تقدمنا العلمي يزداد عمق إيماننا بقدرة الخالق سبحانه لإدراكنا دقة التنظيم ووحدة القوانين المسيطرة على الكون وعلى المادة الحية والمادة

---

[4] محمد شقرون، " الظاهرة الدينية كموضوع للدراسة: شروط إمكانية قيام سوسيولوجيا دينية في المجتمعات "، **المستقبل العربي** العدد 133 مارس 1990 ,(ص ص 24، 31)

[5] المنصف وناس، "الدين والدولة في تونس 1956، 1987"، **المستقبل العربي** العدد 131 جانفي 1990 (ص ص 89، 110)

[6] نبيل محمد توفيق السمالوطي، مرجع سابق، ص 48

[7] المرجع نفسه، ص48

[8] د. محمد أركون،"الإسلام والاسلامات، حوار بين فيلسوفين محمد أركون وايف لاكوست" **مجلة الفكر العربي المعاصر**، العدد 35، 1985، (ص127، 136)

غير الحية، وقد أثبت العلم اليوم أن هناك قوى في الوجود لا يمكن أن تكشفها وتنالها أدق المجاهر والمقاييس لقوله تعالى: " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ " (فصلت :53)

مجال الأنثروبولوجيا الدينية (عن: مهنا يوسف حداد ، الانثروبولوجيا الدينية او العلاقة التبادلية بين ظاهرتي الحضارة والديانة ، ص ص 27-40)

لقد تفاوتت الدراسات الانثروبولوجية للشعوب المختلفة من دراسة مجتمع يعد بعشرات الأشخاص ، إلى مجتمع يعد بمئات الأشخاص ، إلى أخر يعد بألاف الأشخاص ، إلى مجتمعات تعد بعشرات و مئات الالوف من لأشخاص و كانت كل دراسة تتميز بنوع من الوصف ، أو الإنثوغرافيا تتلائم مع طبيعة ذلك المجتمع فعلى سبيل المثال هناك دراسات حول المجتمع الهندوسي ، و المجتمعات البوذية ، و المجتمعات الاسلامية و المسيحية ، و هناك دراسات على مستويات أقل حجما مثل مجتمع (البابوا) غينيا الجديدة (و مجتمع التروبرياندرز في بولونيزيا ، و مجتمعات البيجمي) جنوب افريقيا ، (و مجتمعات النوير) السودان ، و مجتمعات اقل تطورا مثل سكان استراليا الاصليين بطوطميتهم ، (الطموطمية هي المعتقد بوجود رابطة بين حيوان او جماد و اصل القبيلة او المجتمع) ، و هناك دراسات حول شعوب بدائية في شمال الصين و في منغوليا حول الشعوب التي تؤمن بقوة الشامان او الرجل الديني القادر على معرفة أسرار الكون بما في ذلك العالم العلوي (ما فوق الأرض) و العالم السفلي (ما تحت الأرض) و هناك أيضا دراسات حول المجتمعات التي تؤمن بالاساطير مثل المجتمع المصري القديم ، و المجتمع السومري و البابلي و اساطير البعث و الحياة كما في ملحمة جلجامش ، و المجتمعات اليونانية القديمة كما أن هناك دراسات حول الديانة الزرادشتية في المجتمع الايراني ، و المجتمعات التي تؤمن بالاروحية (Animism) كما في المجتمعات الميلانيزية (جنوب شرق استراليا) او ما تدعى بالديانة الاروحية ، و هناك دراسات حول المجتمعات التي يسود بينها الاعتقاد بالسحر كما في المجتمعات الافريقية المختلفة ، و في بولونيزيا (جنوب شرق اسيا) و بين الهنود الحمر في الامريكتين الشمالية و الجنوبية ، و غير ذلك ، كما هناك دراسات حول المجتمعات التي تدين بالأديان السماوية مثل اليهودية ، و المسيحية و الإسلام و هي كثيرة جدا [9].

الأنثروبولوجيا الدينية دراسة متعمقة للشعوب و معتقداتها ، و كيف تعمل هذه المعتقدات في التشكيلة الثقافية (cultural build up) لشخصية الإنسان في المجتمع المعنى او المجتمع تحت الدراسة ، و في هذا المضمار لا تشكل الانثروبولوجيا الدينية دراسة لا هوتية ، و لا تشكل ايضا دراسة حول الحقيقة الالهية للدين ، بقدر ما هي دراسة للنسان ، ما يعتقد به و ما يشكل بالنسبة له حقيقة مطلقة يؤمن بها و يفضلها على غيرها ، و يجد أنها هي الحقيقة التي تنال ليس اعجابه فقط ، و لكن تشكل ايضا محورا لحياته و مصدرا لقيمة و معاييره في تعامله مع الذات و مع الاخر .

انواع المجتمعات حسب الديانة

9- مهنا يوسف حداد ، الانثروبولوجيا الدينية او العلاقة التبادلية بين ظاهرتي الحضارة والديانة ،مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية وللنشر والتوزيع ،الاردن ، 2011. ص ص 27-28

و تبدي لنا الدراسات الانثروبولوجية و بخاصة الاثنوغرافية (الدراسات التي تصف حياة الشعوب و طرق حياتهم) تصنيف الشعوب الى ثلاثة انواع من حيث الديانة :

- الشعوب البدائية و تتسم بما يمكن ان ندعوه الديانات البدائية مثل الطوطيمية و الاروحية و السحر و غيرها .
- الشعوب الأسطورية و هي الشعوب التي تتبع ديانات مبنية على الأسطورة مثل الديانات اليونانية القديمة و السومرية ، و البابلية ، و المصرية القديمة .
- الشعوب التي تعتمد في ديانتها على أرواح الأسلاف كما في أستراليا و أفريقيا و شعوب الهنود الحمر في الأمريكتين .
- و الشعوب التي تؤمن بالوسيط بين عالم الإنسان و العالم العلوي مثل الشامانية الاعتقاد بأن هناك عالم علوي ولا يتصل مع عالم الانسان إلا من خلال وسيط يدعى " شامان " و هو يمارس عمليتين في نفس الوقت العملية الدينية من ناحية و يسخرها لمهمة المداواة أو الطب و يعتمد على طقوس كثيرة في ممارساته هذه .
- الشعوب التي تؤمن بالديانات الطبيعية مثل الهندوسية و الزرادشتية و الرومانية القديمة .
- الشعوب التي انتقلت الى الاعتقاد بإله واحد و تدعى هذه الديانة بالديانة التوحيدية ابتداء بالديانة الفرعونية من القرن الخامس عشر ق.م.ثم اليهودية أو الموسوية ، و المسيحية و أخيرا الأسلام .
- و هناك الجماعات البشرية و التي تكون مجتمعا تؤمن بإله الواحد و لكن بطريقة مختلفة عن طريق أنبياء خارج الأنبياء التقليديين كما في الديانات التوحدية (اليهودي و المسيحية و الاسلام) و نذكر منهم الاحمدية ، و البهائية و المورمون بنبيهم جوزيف سميث (وهم جماعة كبيرة في الولايات المتحدة و مركزهم يوته) و اخذوا ينتشرون في مناطق عديدة من العالم .

جميع هذه الانواع من المجتمعات و الديانات موجودة حتى ان الديانات المسجلة في الامم المتحدة قد وصلت في العالم الى ما يقارب عشرة ألاف عشرة ألاف ديانة معترف بها دوليا .

المشكلات التي تواجهها الانثروبولوجيا الدينية في العالم العربي مشكلتنا في العالم العربي ان مثل هذه الدراسات الانثرويولوجية للانسان و ديانيه بقيت غائبة ، لأسباب كثيرة منها :

1- التمركز حول الذات و المعتقد الديني سواء كان ذلك من جانب المسيحية الشرقية او من جانب الثقافة المسلمة) وليس الاسلامية (و تفادي هذه الشعوب تعريف الفرد بتعدد الديانات ، و تعدد المذاهب ، و تعدد الشعوب ، و الزج بكل ما هو ليس من دياناتنا في مفهوم واحد يتمثل في مفهوم الشرك او الكفر ، حتى ان المثقفين الذين قد يعرفون شيئا حول الديانة الهندوسية و على الرغم من ان الهندوس يعدون حوالي ثلاثة ارباع المليارد في العالم و اكثرهم في الهند لا يكادون يعدون على الاصابع .

2- حداثة الدراسات الإجتماعية في المجتمعات العربية ، و على الرغم من وجود أقسام أكاديمية للأنثروبولوجيا في كل من مصر ، و لبنان ، و الأردن حاليا ، إلا أن القوانين و الأنظمة في هذه الجامعات و ميزانيات البحث العلمي لها لم تعمل على تشجيع الدارسين في القيام بمثل هذه الدراسات و هي دراسات مكلفة .

3- لقد ادى تطور المجتمعات العربية و المسلمية الحديث العهد الى التركيز حول الثقافة المحلية ، و تنمية الروح الدينية المحلية بحيث اصبحت الدولة الحديثة في المجتمعات العربية المسلمية هي المبشر بالديانة المحلية ، و تشجيع الروح الاسلامية او المسيحية ، و تفادي ان يتعرف الانسان العربي على ديانات اخرى بحيث ان القوانين الاساسية في الجامعات تنادي بتنمية الشعور الديني الاسلامي ، و بذلك

توحي بتفادي المعرفة حول تعدد الديانات في العالم ، و اخذت تدخل التعاليم الدينية التوحيدية في المنهاج الدراسية غير أبهة بتسمية من هم من غير هذه الديانات بالكفرة ، و المشركين .

4- هناك الشعور و القناعة كما توحي لنا الكتابات العربية حول الديانة بأن هناك مؤامرة ضد الاسلام و المسيحية في العالم و ان المعلومات التي قد تنادي بتنوع الديانات هي من باب السعي وراء اضعاف الروح الدينية الاسلامية في العالم العربي او العالم الذي يدين بالاسلام ، و رما أن هذا هو سبب الأنغلاقية تجاه التعريف على معتقدات الشعوب الأخرى التي لا تدين بالديانات التوحدية .

5- هيمنة السلطة الدينية في المجتمعات العربية و التي تدعو ذاتها مجتمعات اسلامية من خلال رجال الدين ، وصبغة المجتمع بالصبغة الأسلامية ، أو المسيحية ، و على الرغم من وجود تيارات أخرى تدعو ألى التعرف على الأنسان في كل أرجاء المهعمورة و على الديانات المختلفة التي يدين بها الناس في هذه الكرة الأرضية التي لم تعد حكرا على اصحاب ديانة ، و اصبحت بعد الثورة المعلوماتية كقرية واحدة ، فلا يسعك أيها الطالب إلا أن تتعرف على اسم ديانة ما و تبحث عنه في شبكة المعلومات حتى تأتيك كل المعلومات و أنت وراء شاشة الكمبيوتر فالتعليم الديني متغلغل في كل المناهج الدراسية في مدارسنا ن و ذلك مدعاة لأخذ موقف من كل ما هو من غير ديانتنا ، علما بأن دياناتنا لا تدعو ألى هذه الأنغلاقية[10] .

التعريف بالانثروبولوجي :

ذهب كثيرون من الدراسين العرب لهذا التخصص إلى ترجمة هذا المفهوم بعلم الأنسان ، و لكن أي جانب من الإنسان ؟ و أي إنسان ؟

إذا كان للإنسان جانبان : الفيزيقي أو الجسماني وكان الأنسان كحيوان عاقل ، له ثقافة و حضارة (و على الرغم من التمييز بين الحضارة و الثقافة) فإن الجانب الأول هو الجانب العضوي في حين أن الجانب الأخر هو الجانب السلوكي . و حيث كان الجانب السلوكي يتشكل بناء على ثقافة المجتمع الذي ينمو و يترعرع فيه الانسان ، و على حضارته و قيمته و معاييره ، من ناحية ، و على انفتاحيته و انغلاقه من ناحية أخرى ، فأن الجانب الأخر هذا يمكن أن ندعوه الجانب الأجتماعي ، أو أكثر دقة الجانب الحضاري أو الثقافي ، و ذلك يمكن أن ندعو التخصص الثاني من علم الإنسان بالأنثروبولوجيا الثقافية . و الواقع هو أن هذه التسمية قد اختلفت من بلد لأخر من بلدان أوروبة الغربية و الولايات المتحدة ، حيث دعى هذا التخصص في بريطانيا مثلا و على لسان مؤسسي الانثروبولوجيا هناك بالانثروبولوجيا الأجتماعية (social anthropolology) في حين دعي في بلد مثل فرنسا و هولندا بالأنثروبولوجيا الثقافية (cultural anthropology) .

ولقد اختار مؤسسوا الانثروبولوجيا في جامعة اليرموك تسمية الأنثربولوجيا الإجتماعية بناء على إختيارهم لتأثرهم بالجامعات التي درسوا فيه ، و لكن محور دراسة الأنثربولوجيا من الناحية السلوكية هي الأنثربولوجيا الثقافية ، وما يردسه هذا التخصص هو سلوك الغنسان أو السؤال مؤثوات منها إجتماعية و منها ثقافية ، و من ضمن المؤشرات الثقافية هي مؤثرات التعاليم الدينية و التي يتعلمها الانسان من الاسرة و في المدرسة و في المجتمع ككل .

و حين يتكلم الانسان عن الثقافة فإنه يتكلم على مستويين : المستوى الاول هو مدى اطلاعه و معرفته التي دخلت اله عن طرق مختلفة ، و لهذا علاقة بتعليمه من ناحية ، و على تفاعله مع المجتمع من حوله من ناحية أخرى .و حين يتكلم الانسان عن مبادئه و قيمه و معاييره و الاسس التي يبني عليها سلوكه الواعي و الاواعي فانه يتكلم عن سلوكه الثقافي او الحضاري ، حيث يشير مفهوم الحضارة الى حضور

---

[10] - مهنا يوسف حداد : نفس المرجع ، ص ص 28– 30

الانسان بوعيه في المجتمع و الثقافة و انه من خلال تعرضه للتعليم يدخل الى ذاته مجموعة من القواعد و القيم و المعايير التي يلتزم بها و يحاول عدم تخطيها او التعدي عليها ، و اذا ما قام احد بسلوك لا يتوافق مع هذه القيم و المعايير ، فغنه يعتبر نشازا ، و مخلا بأسس السلوك المطلوبة ، فالأنسان يقوم بسلوكاته تلقائيا وفقا لمجموعة من القواعد و القيم و المعايير التي يتعلمها من تنشيئته في المجتمع و ثقافته ، بما في ذلك التعاليم الدينية ، لكن كثيرا من السلوكات قد لا تتفق مع التعاليم و القيم الدينية و على الرغم من ذلك يحاول صاحب السلوك ان يبررها بطريقة او بأخرى على ان لها مرتكزات دينية ، ذلك أن المرتكزات الدينية أكثر تأثيرا على السامع أو الذي يتم التبرير أمامه .

و هنا كان الأختلاف في الأراء حول التفاعل بين الدين و الثقافة ، هل أن الثقافة ترتكز على الديانة و أن الديانة هي أصل الثقافة ؟ أم أن الديانة هي إحدى المكونات لثقافة الفرد و المجتمع ؟ و على أية حال فأن الجواب يبقى صعبا ، إذ أن الديانة في لحظة ما تصبح منسوجة في الثقافة كما أن الثقافة تصبح مستدمجة في الرؤية الدينية بحيث أن الفصل بينهما يكون من الصعوبة بمكان .

و على ية حال فهناك التمييز بين الديانة الرسمية المكتوبة كما في القرأن الكريم و السنة النبوية ، أو بين المسيحية كما هي في الأناجيل ، أو بين البوذية كما هي مكتوبة في حياة بوذا ، أوبين اليهودية كما هي في التناخ (الكتب اليهودية : التوراة و الكتب الأدبية و كتب الأنبياء) أو بين الزرادشتية كما في كتاب زرادشت و بين معتقدات الفرد الذي لم يطلع على هذه الكتب و اقتبس عن الاخرين شيئا منها و اعتقد انه يعرف الحقيقة .ما يهمنا في دراسة الثقافة او في الأنثربولوجيا هو : ليس ما هي الحقيقة في الديانة بل ما هي حقيقة سلوك الانسان في المجتمع الذي ندرسه و كيف وصل الانسان الى هذا السلوك ، ثم كيف نفسر هذا السلوك .

حتى السلوك الديني عند الفرد في المجتمع الذي ندرسه ، فما يهمنا منه هو :

1. ما هو هذا السلوك (الوصف)
2. كيف توصل هذا الفرد في هذا المجتمع بالذات الى القيام بهذا السلوك (التنشئة)
3. هل هذا السلوك سلوك قياسي او منوالي في مجتمع الدراسة ؟
4. كيف يفسر ابناء المجتمع هذا السلوك
5. ما معنى هذا السلوك ؟

الأنثربولوجيا الدينية إذا هي ذلك التخصص في الأنثربولوجيا الثقافية أو الأجتماعية الذي يعني بدراسة سلوك الفرد كسلوك نمطي في المجتمع يضفى عليه السلوك الديني ، أو يعتمد أفراد المجتمع في القيام به على قواعد دينية وقيم و معايير مستمدة من الديانة أو يبررها الدين السائد في المجتمع ، كما في الطقوس الدينية أو الإجتماعية أو الثقافية ، كما في طقوس العبور ، و الزواج و الطلاق ، و الطهور أو طقوس الطهارة .

مشكلات الأنثربولوجيا الدينية في الدراسات الأنثربولوجية الحديثة :

هناك مشكلات عديدة تتحدى العاملين في تخصص الأنثربولوجيا الدينية ، ذلك أن العاملين بها و على الرغم من غعتقادنا بأنهم يلتزمون الموضوعية لا يزالون و في اللاوعي لديهم ينتمون إلى حضارات كثيرة و ذوي معتقدات متعددة لا تزال تعمل في مواقفهم و سلوكاتهم بحيث أنها تئثر كثيرا على نظراتهم إلى الديانات المتنوعة للشعوب المختلفة . و لنأخذ مثلا تطور الأنثربولوجيا في المجتمعات الغربية و التي استعرنا منها ذلك العلم .

1- لقد بدأ علم الأنثربولوجيا تحت تأثير الاستعمار ولا شك في ان الشعوب التي استعمرت العالم في ذلك الوقت كان اكثرها يدين بالمسيحية البروتتنطية ، كما هي هولندا في اندونيسيا ، فرنسا الكلفينية و الكاثوليكية في غفريقا و جنوب شرق اسيا ، و بعض مناطق الشرق الأوسط كما في لبنان ، وسورية ، و

شمال أفريقيا (تونس و الجزائر و مراكش) و إيطاليا في ليبيا ، و بعض مناطق إفريقيا و غيرها لقد عمل علم الانسان لهذه الشعوب أداة يعرفون من خلالها كيف يتعاملون مع ، و اعتمدوا على الأنثربولوجيين في دراسة ديانات هذه الشعوب و بخاصة تحت تأثير المؤسسات التبشيرية ، كي يعرفوا كيف تفكر هذه الشعوب و ما الذي يمكن أن يجتذب الناس في هذه المجتمعات و مما لا شك فيه أن الاوصاف التي قام بها علماء الانسان من هذه البلدان قد تأثر كثيرا بمعتقدات الجماعات الدينية المسيحية ، ووضعوا وصف الديانات لهذه الشعوب تحت محك و قوموها بناء على معتقداتهم الدينية المسيحية ، بروتستنطية ام كاثوليكية ، و اعطوا فكرة عن محتويات هذه الديانات مقارنة مع المعتقدات المسيحية المذكورة [11].

2- لا يوجد لدينا في الدول التي تدين بالاسلام من وصل الى مصاف الباحثين الذين من الممكن ان يقدموا لنا وصفا لديانة معينة من الديانات غير التوحيدية لنقوم بتقويم حول كتاباته ، ووصفه لديانات غير إسلامية و غير توحيدية ولا يزال هذا الفراغ قائما لهذا الوقت .فمجتمع الأثنوغرافيا الموجودة لدينا عن الديانات البدائية هي من صناعة علماء الغرب المسيحي أو اليهودي أو العلماني .

3- لا يزال مفهوم الدين لدينا في العالم العربي و البلدان التي تقول بأنها بلدان إسلامية بأن الديانات التي تدين بها الشعوب ما عادا المسيحية و اليهودية على أنها ديانات إما مشركة أو كافرة ، أو غير ذلك من التسميات بناء على المعتقد بأن الإسلام هو الديانة الحقة و يمتلك الحقيقة المطلقة . كذلك لا زلنا ننظر بدونية ألى الشعوب التي تؤمن بما تؤمن به .و الكثيرون منا ينادون بمحاربة هذه الديانات و على الرغم من التفاوت الكبير بين المطلعين على تلك الديانات و غير المطلعين عليها .

4- مفهوم الدين لدينا في المجتمعات العربية مفهوم مقيد ، محلي ، ومبني على معتقد محدد الملامح بالديانة التوحدية ، وكل ما غيرها فهو خارج عن نطاق مفهوم الديانة التي نفهمها ن و هناك تشكك كبير حتى في مفاهيم الديانات التوحيدية الأخرى كما في المسيحية أو اليهودية ، و اللتان تتهمان بتحريف كتبهما السماوية ، ذلك أننا نضع القرأن الكريم في مركزية الحقيقة المطلقة ، وعلى الرغم من أنه مكتوب بالغة العربية ، وكأن اللغة العربية هي اللغة المقدسة الوحيدة ، و على الرغم من إيماننا بمصداقية الديانة الإسلامية إلا أن إنكار الحقيقة على الشعوب التي تدين بدياناتها من الصعوبة بمكان لترويجه بين اعضاء تلك الشعوب من ناحية ، وبسبب النظرة الترفعية التي تضيفها على ذاتنا من ناحية أخرى .

5- جميع الكتب العربية التي تدور حول الديانات الأخري مكتوبة بطريقة حججية لأثبات غياب الصحة في هذه الديانات من منظور إسلامي ، ولا تعتمد القناعات التي تمتلكها تلك الشعوب حول طبيعة الديانة و القوى الخارقة للطبيعة التي تؤمن بها ، و لذلك فاننا نرى أنها محورية المركز ، و غير علمية بمعنى أنها تقدم ديانة شعب ما كما يؤمن بها ذلك الشعب ، فعلى سبيل المثال و على الرغم من وجود أكثر من مائتي طائفة مسيحية مختلفة بالمعتقدات و القناعات و الايمان ، إلا انها تدرج جميعا تحت اسم المسيحية ، و كان كل هذه الطوائف و الكنائس المتعددة تمتلك ذات المعتقد و ذات الايمان .

6- المشكلة الاكبر لممارس علم الانسان الديني هو ان المجال غير مفتوح له لكي يفكر خارج الاطار الديني النمطي ، او العلمي البحث بغض النظر عن ايمانه بمعتقد او ديانة او عدم ايمانه أي أن المنشغل بالأنثربولوجيا الدينية قد يصعب عليه ان يقول ان جماعة ما تؤمن بهذا و ذاك دون ان يصدر حكما اذا ما كان مثل هذا المعتقد يعتبره شعب ما او دون ذلك سليما .

---

[11]- - مهنا يوسف حداد : نفس المرجع ، ص ص 31– 34

7- ثم ان المشكلة الكبرى و التي تتضمنها النقاط السابقة هي أن حرية الرأي و حرية الأعتقاد في هذه المجتمعات مقيدة إلى أبعد الحدود ، ولا مجال للمفكر الحر بأن يطلق عنان تفكيره إلى ما هو خارج الحضارة المهيمنية في هذه المجتمعات و التي يدخل الدين في كل جزئية من تركيبتها .

8- المشكلة الأكبر في دولنا العربية و الإسلامية هي مشكلة المؤهلات الإقتصادية للبحث العلمي الحر ، و مشكلة التمويل ، و مشكلة الأهداف التي تكمن وراء الدراسات الدينية للمجتمعات المختلفة دينيا عن مجتمعاتنا .فميزانيات البحث العلمي لا تسمح بمثل هذه الدراسات و المثال على ذلك هو أن ميزانية البحث العلمي في جامعة اليرموك لا تتعدى 105 ألاف دينارا أردنيا ، أو 147 ألف دولار ، في حين أن ميزانية البحث لدراسة النوير في السودان التي تلقاها إفانز برتشاد تعادل أربعة أضعاف هذا المبلغ ما قبل النصف الثاني من القرن العشرين ، و هذه المشكلة الأكبر تتمثل في التحول من التفكير المقيد إلى التفكير الحر ، أو التفكير العلماني ، العلمي غير الخاضع لرقابة السلطة الدينية في المجتمع و هذا ما لم نصل إليه في مجتمعاتنا العربية الأسلامية . النقطة الثالثة في هذا المجال هو تحول الانسان الباحث نفسه و تغيره إلى عالم أخر من الفكر و الموضوعية ، بحيث يتمرس على اخذ مسافة من معتقداته الخاصة ، و يفكر بما يمليه عليه الميدان من ظواهر و معتقدات ، قد لا يتفق معها عاطفيا ، ولكن يأخذها على محمل الجد مونها واقعا يتعامل معه ، كما هو و كما يظهر ذاته في تجلياته .

هذه جميعا مشكلات يعاني منه التخصص في الأنثربولوجية و بخاصة في العالم العربي ولست بحاجة إلى الاستشهاد بدراسات و لو حتى على مستوى رسائل الماجستير (حيث لا يقدم الباحث أي رأي أو أن يقدم الحقائق كما هي ، معترفا بأن هذا الواقع الذي تصدى له ذاته و دون أن تكون لديه نظرية يستمد منها ما يمكن أن يفسر ظاهرة دينية معينة . هذه الظاهرة مستفحلة في دراسة حضارة الإنسان بما في ذلك الأثار حيث ما زلنا نكتفي بوصف ما نعثر عليه في الحفريات ، و ننسى أن الرجل الذي أسس لنا الأنثربولوجيا كان عالم أثار في أول الأمر ، و هو إدوارد تايلور ، وقد انطلق من نظرية التطور الإجتماعي ليفسر لنا ظاهرتين أساستين الأولى الحضارة أو المدنية كما يدعوها و الثانية هي الديانة البدائية و في كلتا الحالتين كان يقدم تفسيرا لذلك التطور سواء الديني أو الحضاري .

لقد تطور الأنثربولوجي أكثر ما يكون في البلاد العربية في مصر حيث عرفت أولى الدوائر الأكاديمية في هذا العلم ، و لكن أساتذتها قلما أبدوا اهتماما بالأنثربولوجيا الدينية ، و بقيت دراساتهم مقتصرة على تخصصات أخرى ، و بخاصة العائلة و القرابة ، و البناء الإجتماعي ، والأنثربولوجيا الإقتصادية ، و ما كان ينقصهم هو الدعم المادي .

غير أن هناك مشكلة كبيرة تواجه الأنثربولوجي في العالم العربي من حيث الاتصال مع الجامعات الغربية و الدخول ألى مصادر التمويل ، و تشكل هذه معضلة على كثير من المستويات ، فويل للأستاذ أو عضو هيئة التدريس الذي يحصل على تمويل من الخارج ، فيوصم رأسا بالعمالة للإستعمار من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الغربيون لم يأخذوا المختصين في هذا العلم محمل الجد ، ولم يشركوهم ، حتى حيث وجدت القابلية عن المختصين العرب ، بأبحاث جادة ، و قلما وجدنا باحثا عربيا ينشر في مجلات عالمية محكمة إلا من قبيل المجاملة في بعض الأحيان . ولا غرابة في ذلك فكثيرا ما تلاك المعرفة لوكا في جامعاتنا العربية التي تبدو و كأنها تتوقع من عضو هيئة التدريس صرف راتبه على أبحاث لا يجني منها حتى بحبوحة العيش .

<u>الخصائص العامة لأنثربولوجيا الدين المعاصر :</u>

من الواضح اننا لا نستطيع ان نصوغ تعريفا للدين في قالب نظري ، أو بعيدا عن إهتمام الديانة ذاتها ، فالديانة تتعدى النظرية المتخصصة ، و هي تعيق النظرية ، و الأنثربولوجيا الدينية الدينية متعددة العلوم في اوسع اشكالها و يمكن ان نصوغ بعض خصائص الأنثربولوجيا الدينية بطرق اكثر تحديدا .

1- الأنثربولوجيا الدينية المعاصرة تتعاطف مع طبيعة الممارسات الإنسانية العملية للتجربة الدينية ، أي الديانة كما نجدها في الواقع الأمبيريقي ، بين الناس ، و التوتر السائد بين المعطيات الرسمية و المؤسسية من ناحية و جو الحياة الدينية لتركيز الدراسات الأنثربولوجية تاريخيا على الشعوب التي لا تعرف الكتابة أو البدائية و دياناتها ، هذا يعني إهتمام الأنثربولوجيا بالديات التي لا تشبه الديانات التوحيدية بهذه الطريقة كانت الأنثربولوجيا الدينية تركز على خصوصة الحياة الدينية عبادة أرواح طقوس قديسين تقمص --- مقابل الرؤية المثالية للمتخصصين المهنيين في الديانة ن ورافضي الحياة الدنيا ، أو الأخلاق الدينية المعاصرة متنوعة من حيث النظرية و المنهجية ، ذلك أن الأنثربولوجيا تشترك بأصول فكرية واحدة ، وهذا ما جعل صناعة أنثربولوجيا الديانة تسير في منعطفات مختلفة كما هي الحال في تخصصات كثيرة من المعرفة و هكذا نجد أن أتباع المدارس التقليدية في الأنثربولوجيا مثل دركهايم و فيبر ، و ماركس و فرويد ، و اتباع المدرسة البنائية الذهنية ، و أصحاب المدارس الأكثر حداثة ، كل منهم يجد طريقة الخاص لتفسير الديانة .

2- تحاول الأنثربولوجيا الدينية المعاصرة التغلب على الأحكام المسبقة ، كما هي الحال في فهم الديانة المرتكز إلى قيم الحضارة الغربية و التي نجدها كثيرا في أعمال عالية القيمة كما في أعمال إيفانز بريتشاد ، و مالينوفسكي و تايلور و ليفي ستراوس . وفي الستينات من القرن الماضي أخذ تعريفهم للديانة يفسح الطريق أمام تعريفات أكثر مرونة كما هي الحال في تعريفات قدمها لنا أخرون كالتعريف الذي قدمه كيفورد جيرتز و الذي فهم الديانة على انها نسق من الرموز يعتبرها الممارسون حقيقية و فريدة من نوعها بطري مختلفة . كذلك جائنا تعريف ميلفور سبيرو راذا على دركهايم بالذات . و الذي قلص الديانة الى تلك الاعمال و التجارب التي تشتمل على التعامل مع ما هو فوق إنساني أو خارق للطبيعة .بناء عليه كان هؤلاء عرضة للنقد و لكنهم لم يابهوا به .

3- هناك أيضا الاعتقاد الأنثربولوجيا الدينية المعاصرة تؤكد على المكان ، و المكان هو ما يجعل الأنثربولوجيا الدينية تتميز عن الدراسات الدينية الأخرى و هو أيضا أكثر الإسهامات التي قدمتها و تقدمها الأنثربولوجيا في الدراسات الدينية المعاصرة لقد أكد الأنثربولوجيون في الأنثربولوجيا و في الدراسات الدينية الأخرى على معرفة عميقة و متميزة بالمكان و اعتبروه نقيضا لمدخل الدراسات الدينية المقارن و الذي يتميز بالسطحية و الشكلية [12].

[12]- - مهنا يوسف حداد : نفس المرجع ، ص ص 36– 40

الانثروبولوجيا الطبية. (الدكتور : الطيب العماري)

عبر التاريخ وباختلاف الثقافات اختلفت تفسيرات المرض كما اختلفت معها طرق و وسائل العلاج والتطبيب وظهر منها اتجاهين أساسين:

يرى **الأول** في المرض اختلال في التوازن الطبيعي (ومع الطبيعة) يجدر إصلاحه، هذا هو أساس الطب الغربي "العقلاني" الذي بدأ مع أبوقراط و الذي يعتمد على علاج "الأمزجة" حيث يعالج المريض بإعطائه طعاما وشرابا من فئة رمزية مقابلة لما يزعجه، أو عن طريق العلاج النباتي كالزهور و الحبوب أو بالفصد والاستحمام.

أما الاتجاه **الثاني** فهو يقضي بعدم النظر إلى المرض كمجرد انشقاق عن البيئة الطبيعية وباعتباره، على العكس أو في الوقت ذاته انسلاخا عن البيئة الاجتماعية قد يكون مرئيا أو خفيا، ويدل المرض و البؤس على غضب الله، أو ارتكاب الذنوب، أو أن الفرد أو الجماعة مستهدفة من طرف الأرواح الشريرة أو من سحرة حصلت إثارتهم بصورة لا واعية من وراء تسجيل نجاح عظيم أو ارتكاب ظلم كبير، وهناك أمراض محددة تدل على انتهاكات منسية قد تكون أحيانا سحيقة القدم في تاريخ السلالة أو الجماعة (جريمة قتل أو ارتكاب المحارم أو تعدي على الأقارب)، وتستدعي هذه الأمراض ممارسة جملة من الطقوس وبعض التعازيم لاسترضاء الإلهة أو طرد الأرواح الشريرة، أو معالجة الروابط و العلاقات الاجتماعية بين الأفراد.

إن الاختلاف في تفسير المرض بحسب الثقافات وتعدد الممارسات العلاجية التقليدية تمثل مشكلات ميدان الانثروبولوجيا الطبية .

مصطلح الانثروبولوجيا الطبية (Médical Antropology) استخدم لأول مرة في الكتابات الانجلوسكسونية(حسب الباحث N.C.scoth عام1963). لكن بعض الانثروبولوجيين الفرنسيين يفضلون استخدام مصطلح انثروبولوجيا المرض كما ذهب الانثروبولوجي C.C.Hughes عام 1968 إلى طرح مصطلح الاثنوطب (Ethnomédecine) ليلاءم " المعتقدات والممارسات الخاصة بالطب

<u>أهداف للانثروبولوجيا الطبية</u>

هناك خمسة أهداف للانثروبولوجيا الطبية يركز عليها الباحثون أثناء عملهم في إطار مجالات الطب الشعبي، أو طب الجماعات العرقية لا سيما إن كانت هناك حالة من التغير تسود البناء الاجتماعي والثقافة

المحلية وتلحق بتأثيراتها في جوهر العادات و المعتقدات الطبية السائدة في ثقافة معينة، وتلك الأهداف هي:

1-تهدف الانثروبولوجيا الطبية إلى زيادة وتعميق الوعي العام لدى الانثروبولوجين و الباحثين في مجالات الرعاية الصحية بضرورة العناية بالمعتقدات الطبية ونماذج الممارسة خاصة بين الثقافات و الجماعات العرقية ذات الخصوصيات الثقافية، أي أنها تهدف إلي إيجاد مستوى من الفهم يدور حول محور الاهتمام بفهم الصحة في إطار الثقافة السائدة.

2-إضافة وتدعيم الأبعاد النظرية و المنهجية التي يمكن بواسطتها دراسة وفهم كل نماذج الطب الحديث ونماذج الطب الشعبي السائد في المجتمع, وفي إطار الثقافة المحلية، وكيفية تعامل الناس مع تلك النماذج السائدة، أي فهم الصحة في إطار الثقافة، ودراسة الاثنين معا باعتبارهما نسقا متكاملا من الفكر والممارسة يرتبطان و يتداخلان مع كثير من المفاهيم المحلية كالرمزية و الأنشطة و الممارسات الشعائرية أو الطقوسية وأساليب العلاج أو التطبيب.

3-التزود بالعديد من التفسيرات و التحليلات ذات الصلة المباشرة بالممارسات الطبية الحديثة وممارسات الطب الشعبي.

4-تسعى الانثروبولوجيا الطبية إلى تحديد مجال عملها المبكر من خلال عمليات التخطيط الصحي والعلاجي في بعض المجتمعات و الثقافات الثقافية تجاه الصحة و المرض، ونظرة المجتمع نحو أساليب ونماذج كل من العلاج الطبي الحديث، و الشعبي وبصفة خاصة العلاج الروحاني أو النفساني والفهم الواضح للأسباب الحقيقية المسببة للمرض و الاعتلال.

5-وهو هدف تقويمي يستند إلى تشييد وتنمية برامج التقويم والاختبار للمشروعات التجريبية لمجلات الصحة و الرعاية الطبية في ضوء مراعاة الاحتياجات الأساسية و الفعلية للمجتمع.

الأنثروبولوجيا ودراسة المرض:

يعد المرض ظاهرة تشترك فيها كل الثقافات والمجتمعات باختلاف درجات تقدمها التكنولوجي، ولا يخلو منه أي نمط من الأنماط الاجتماعية ولكن الاختلاف يكمن في تفسير المجتمعات والثقافات المختلفة للمرض من حيث أسبابه وكذلك طرق العلاج ونوعية المعالجين.

لقد تميز **المرض بتعريفات** عديدة مختلفة من مجتمع لآخر ومن مفكر لآخر، فالمرض في تعريفه البيولوجي البسيط والعام "حالة من الاضطراب أو اختلال للنواحي الوظيفية في الجسم أو لأسباب حيوية

"بيولوجية" تجعل عدم قدرة أعضاء الجسم على أداء وظائفها على الوجه الأكمل" كما عرف بأنه :"حالة التغير في الوظيفة أو الشكل لعضو ما، ويكون الشفاء منه صعبا أو مستحيلا بدون علاج، ولأجل العودة إلى التوازن الفسيولوجي يتطلب من الجسم عادة عدة عمليات أو وظائف لا تدخل في الوظائف الفسيولوجية المسؤولة عن التوازن في العضو المصاب"

إذا كانت المجتمعات الغربية اليوم يغلب عليها التفكير العلمي المنطقي وأنهم أكثر اهتمام بالبحث عن الأسباب المنطقية العقلانية المادية وراء حدوث المرض, فإن المجتمعات التقليدية تذهب إلى الاعتقاد بأن قوى فوق الطبيعية (كالأشباح والأرواح الشريرة، وقدرات السحرة والمشعوذين....) هي التي تتسبب في الأمراض المختلفة. ومن هنا فقد تعددت المفاهيم والتفسيرات للمرض.فبالإضافة إلى التعريف البيولوجي الذي تعرضنا له يأخذ المرض مفاهيم ثقافية واجتماعية على النحو التالي:

أولا :المفهوم الثقافي للمرض:

يؤكد المفكر رالف لينتون Lighton إن مفهوم المرض في نطاق المجتمعات التقليدية يرتبط بالثقافة وبالنسق الثقافي السائد بينما نجد أن مفهوم المرض مرتبط بالعلم في نطاق المجتمعات الغربية الحديثة. وفي نفس الفكرة أكدت الباحثة Scott التي ذهبت إلى أن المرض مفهوم وتصور خاص في نطاق المجتمعات التقليدية ويتعامل السكان مع المرض كظاهرة إعجازية تعلو عن مستوى الطبيعة حيث يرتبط لديهم بالسحر والممارسات السحرية والدين والممارسات الدينية، وفي اختيارهم لأنماط العلاج والمعالجين.

كما يشير محمد حسن غامري إلى أن أنماط الثقافة الطبية لابد وأن تتكامل مع الشبكة الكلية التي تشتمل على المعتقدات والقيم التي تشكل جزءا من ثقافة كل مجتمع.

ومن هذه التقديمات يمكن أن نقول أن أغلب الانثروبولوجين متفقون تقريبا على القول بأن **المرض ليس مجرد حقيقة بيولوجية أو نفسية لكنه كذلك حقيقة ثقافية ترتبط بالسياق الثقافي والاجتماعي الذي يتشكل بداخله.**

ثانيا: المفهوم الاجتماعي للمرض:

إن فهمنا ودراستنا للمرض لا يجب أن يكون بعيدا عن فهم وإدراك العوامل المختلفة المساعدة على

انتشار الأمراض إذ تساعد الظروف الاجتماعية السيئة كالفقر والجهل وانخفاض مستوى المعيشة والتمزق الاجتماعي...الخ في الإصابة بالأمراض وانتشارها.

وفي جانب آخر قد تعرف المشكلات الشخصية بأنها أمراض على الرغم من أنها لا تنطوي على خصائص مرضية بيولوجية أو تشكل مشكلات خطيرة للمجتمع، وهذا ما نراه في الإشارة إلى بعض الجماعات والأشخاص في المجتمع كالمتطرفين دينيا أو سياسيا

إن إصابة الفرد أو جماعة بالمرض يعبر عن حدوث خلل في النسق الاجتماعي العام مما يتطلب البحث عن العلاج وهذا أيضا يتطلب مشاركة جماعية.

إذن فالمرض ليس مجرد اضطراب بيولوجي لنظام الفرد ككائن حي ولكن يمثل أزمة اجتماعية وفترة لإعادة التوافق أو التنظيم للجماعة ككل.

وفي الأخير نقول أن فهمنا للصحة والمرض لن يكتمل إلا بعد إدراجها في السياق الاجتماعي ليضفي عليها الصبغة الاجتماعية، فإذا كانت مهام الطب هي فهم كيفية وقوع المرض ومعالجته فإن هذه المهام تصبح بدون فائدة ما لم تراع أهمية العوامل الاجتماعية والنفسية للأفراد مثلما تراعي العوامل البيولوجية.

3- المرض في الإسلام:

أخذ المرض في اللغة العربية مفاهيم متعددة فقد ورد في المصباح المنير للمقرئ كلمة مرض بمعنى تعب والمرض حالة خارجة عن الطبع بالفعل، والمرض كل ما خرج به الإنسان عن الصحة من علة أو نطاق أو تقصير في أمر، والمقري في هذا المفهوم للمرض يتجاوز المرض العضوي إلى المرض السلوكي.

كما يأخذ المرض عنده ايضا مفهوم السقم حيث ورد في المصباح المنير سقم سقما بمعنى تعب وطال مرضه، وفي مختار الصحاح للرازي وردت كلمة مرض بمعنى سقم، ومرضه تمريضا بمعنى قام عليه في مرضه، والتمارض أن يرى الإنسان من نفسه المرض وليس به مرض.

المرض في الإسلام نوعان: مرض القلوب ومرض الأبدان

1/ مرض القلوب:

أ) مرض شبهة وشك ويأتي ذلك من قلة الإيمان بالله وبقدره قال تعالى:" فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً " (البقرة– آية 10) وقال أيضا:" وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً " (المدثر :آية 31).

ب) مرض شهوة وتمني: ويعني تلك النزوات والشهوات التي قد تورط الإنسان في المعاصي والأخطاء والحرام والحسد والبغض وارتكاب الذنوب وتسبب له القلق الدائم قال تعالى:" يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ " (الأحزاب :31)

ولعلنا نرى هنا ارتباط المرض بالقلب لقول رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم:"ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهو القلب" (حديث شريف) ولعلاج أمراض القلوب يقول ابن قيم الجوزية أن على المسلم أن يتسلح بالإيمان بربه وأن يوطد علاقته مع خالقه وهو أساس نجاح العلاج :" فإن القلب متى ما اتصل برب العالمين وخالق الداء والدواء كانت له أدوية أخرى غير الأدوية المادية، وقد علم أن الأرواح متى قويت وقويت النفوس يتم التعاون على دفع الداء وقهره

2/**مرض الأبدان:** وهو الآخر نوعان:

أ) مرض فطر الخالق عليه الحيوان والإنسان وهذا لا يحتاج إلى معالجة طبية كطب الجوع، العطش، البرد، التعب بأصنافها وما يزيلها

ب) أما الثاني ما يحتاج إلى فكر وتأمل كدفع الأمراض المتشابهة الحادثة في المزاج، بحيث يخرج بها عن الاعتلال إما إلى الحرارة، أو البرودة أو يبوسة أو رطوبة...الخ.

روى ابن عباس عن النبي محمد (ص) قال:" الشفاء في ثلاث: شربة عسل وشرطة محجم وكية نار، وأنا أنهى أمتي عن الكي" (حديث شريف)

ولعل الإسلام قد سبق كل النظريات الاجتماعية والانثروبولوجية في اعتبار المرض والشفاء ظاهرة اجتماعية أكثر منها ظاهرة فردية يقول النبي محمد (ص):" ترى المؤمنين في تزاحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى"(حديث شريف. رواه البخاري ومسلم)

تفسير المرض:

إن المرض يطرح الكثير من الأسئلة التي تحير المرضى وتزيد في قلقهم والتي تستوجب عندهم إيجاد أجوبة شافية مقنعة، كالسؤال عن طبيعة أمراضهم، أصلها ومعانيها، كما يتسأل المريض لماذا كنت أنا المستهدف من هذا المرض بدل غيري؟ كيف يمكن التخلص من هذا المرض؟ وغيرها من الأسئلة التي تراود تفكير المريض.

لقد قدمت الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية تفسيرات ومعاني مختلفة للمرض بين التفسير

الاجتماعي والثقافي والديني.

فعند البعض يأخذ المرضى معنى وتفسير أنه عقاب إلهي ناتج عن ضعف إيمانهم وابتعادهم عن الدين "منطق المصيبة" عند فرانسوا لابلانتين. ويذهب البعض الآخر إلى اعتبار أن المرض اعتداء من قوى فوق طبيعية كالجن، أو من أشخاص (كما يحدث في حالات السحر، العين والحسد...) ,و عند آخرين تفسير بأنه اختبار وامتحان إلهي لمعرفة مدى إيمان البشر بالله، وفي كثير من الأحيان يفسر المرض كونه مكفرا عن الذنوب والخطايا التي قد يرتكبها أو يقع فيها بنو الإنسان.

أ- **المرض ابتلاء وعقاب:** إن الكثير من المعالجين والمرضى يفسرون المرض بأنه ابتلاء من الله يصيب الفرد و من خلاله الجماعة نتيجة حالة الإهمال والتكاسل في أداء العبادات وعدم احترام المبادئ الدينية،

في التفسير الانثروبولوجي يقدم "فرانسوا لابلانتين" تفسيرا مماثلا لكنه يعمم تأثير المرض من الفرد على الجماعة بقوله: "المرض يأخذ شكل تحذير يجعلك تعتقد بأنك ارتكبت خطأ عمدي أو غير عمدي، و للعودة للنظام يتطلب إصلاح ودعوة إلى ترميم علاقات الجماعة مع ذاتها التي هي مهددة بالخطر من خلال مرض الفرد الواحد" وهو ما اصطلح عليه "منطق المصيبة".

ب- المرض امتحان: يأخذ المرض عند الكثير من المرضى والمعالجين شكل امتحان إلهي رباني يختبر الله عباده ويمنحهم الأجر والثواب على قدر صبرهم وتحملهم للمصائب التي ابتلاهم الله بها. هذا ما يسميه فرانسوا لابلانتين بعبارة "المرض المكافأة"

جـ- المرض عدوان: إذا كان للمرض في التفسيرات السابقة معاني الابتلاء والعقاب والامتحان وكلها ناتجة عن تدخل الإرادة الإلهية، فإن (أي المرض) يأخذ في أحيان كثيرة معنى الاعتداء الناتج عن تدخل عناصر خارجية تصيب جسم وعقل الإنسان (كالعناصر المرضية المضرة ، الأرواح الشريرة، وحتى الذات الإنسانية ، الاعتداء عن طريق العين والحسد فالمريض أيضا غير مسئول عن مرضه لكنه قد يتحمل جزء من المسؤولية لعدم تحصنه.

بالإضافة إلى الدعاء الذي يتعرض له المريض مثل دعوة الوالدين الساخطين على أبنائهم العاصين لهم، أو دعوة المظلوم...الخ) وفي هذه الحالات فإن المريض غير مسؤول عنها أو أن مسؤوليته غير مباشرة (جزئية).

الإحـــالات:

1 - François Laplantine: **Anthropologie de la maladie**

2 – *Pierre Bourdieu, Sociologie d'Algérie*

3 – نخبة من الاساتذة: **الأنثرويولوجيا مداخل وتطبيقات**,دار المعرفة الجامعية,الازرايطة,2001

4 – فرانسوا لابلانتين، **المسلمات المشتركة بين مختلف الأنظمة العلاجية التقليدية الإفريقية** ترجمة محمد أسليم.

5 – دوني كوش ، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، ترجمة قاسم المقداد

6 – سول شيد لنجر ، التحليل النفسي والسلوك الجماعي، ترجمة سامي محمود علي.

7 – عبد الرحمان عيسوي، سيكولوجية الخرافة والتفكير العلمي.

8 – عبد المحسن صالح، الإنسان الحائر بين العلم والخرافة، عالم المعرفة

الأنثروبولوجيا الاجتماعية :

(عن :عيسى الشماس /علم الانسان–الانثروبولوجيا–)

تعرّف الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنّها : دراسة السلوك الاجتماعي الذي يتّخذ في العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة، ونسق القرابة، والتنظيم السياسي، والإجراءات القانونية، والعبادات الدينية، وغيرها. كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواء في المجتمعات المعاصرة أو في المجتمعات التاريخية، التي يوجد لدينا عنها معلومات مناسبة من هذا النوع، يمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات.

ولذلك، فمن الضروري في دراسة الإنسان وأعماله، أن نميّز بين عبارة " ثقافة " وعبارة " مجتمع " المرافقة لها. فالثقافة – كما في تعريفاتها – هي طريقة حياة شعب ما، أمّا المجتمع فهو تكتّل منظّم لعدد من الأفراد، يتفاعلون فيما بينهم ويتبعون طريقة حياة معيّنة .. وبعبارة أبسط : المجتمع مؤلّف من أناس، وطريقة سلوكهم هي ثقافتهم .

وهنا تعدّ تصنيفات المؤسّسات والأنظمة الاجتماعية، أدوات نافعة للأغراض الوصفية، كما أنّ التعميمات بالنسبة للعلاقات المتداخلة والمتبادلة بين النماذج والمؤسّسات، تساعد في الاهتداء إلى نوع من النظام وسط أوضاع تبدو مشوّشة وغامضة، وفي زيادة الفهم الحقيقي للعمليات الاجتماعية. وفي الوقت ذاته، يعتمد هذا الفهم على دراسة النسق الكلّي الذي يؤلّف النظام الاجتماعي جزءاً منه. ويضمّ هذا النسق ثلاثة عناصر متميّزة، هي : شخصيّات الأفراد الذين يؤلّفون المجتمع، والبيئة الطبيعية التي يتعيّن على المجتمع أن يكيّف حياته وثقافته معها، وأخيراً المجموعة الكاملة من الوسائل الفنيّة اللازمة للمعيشة، التي تضمن استمرار بقاء المجتمع عن طريق نقلها من جيل إلى جيل.

ولكن، هل يمكن أن نفصل على هذا الشكل بين الإنسان كحيوان اجتماعي، والإنسان كمخلوق ذي ثقافة؟ أليس السلوك الاجتماعي في الواقع سلوكاً ثقافياً؟ ألم نرَ أنّ الحقيقة الكبرى في دراسة الإنسان ، هي الإنسان نفسه أكثر ممّا هي مُثُل الإنسان أو نظمه، أو حتى الأشياء المادية التي نجمت عن ارتباطه بتكتّلات نسمّيها " مجتمعات "؟

فالنظام الاجتماعي إذن، هو التعبير التقني الأنثروبولوجي الذي يدلّ على المظهر الأساسي في حياة الجماعة الإنسانية، وهو يشمل النظم التي تؤلّف إطاراً لأنواع السلوك جميعها، سواء كان فردياً أو اجتماعياً.

إنّ اللغة والحياة الاجتماعية المنظّمة، زوّدتا الإنسان بأدوات لنقل الثقافات، مهما بلغت من التعقيد، والمحافظة على تراثها بصورة غير إيجابية. وعملت الحياة الاجتماعية أيضاً على جعل الإنسان في حاجة إلى إرث اجتماعي، يفوق في ثروته ما تحتاج إليه الحيوانات. وتمّت المحافظة على المجتمعات البشرية، بتدريب أجيال متلاحقة من الأفراد .. ولذا كانت المجتمعات، هي نفسها، حصيلة الثقافة.

وبناء على ذلك، تهدف دراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى تحديد العلاقات المتبادلة بين هذه النظم، سواء في المجتمعات القديمة التي تدرس من خلال آثارها المادية والفكرية، أو في المجتمعات الحديثة والمعاصرة، التي تدرس من خلال الملاحظة المباشرة لمنجزاتها وتفاعلاتها الخاصة والعامة.

ثانياً–نشأة الأنثروبولوجيا الاجتماعية وتطوّرها:

يعدّ اهتمام الأنثروبولوجيا عامة، والأنثروبولوجيا الاجتماعية خاصة، بدراسة المجتمعات الإنسانية، وعلى المستويات الحضارية كافة، منطلقاً أساسيّاً من فلسفة علم الأنثروبولوجيا وأهدافها، ولا سيّما دراسة أساليب حياة المجتمعات المحلية، إلى جانب دراسات ما قبل التاريخ، ودراسات اللغات واللهجات المحلية .. وهذا ما يميّز الأنثروبولوجيا من العلوم الإنسانية / الاجتماعية الأخرى، ولا سيّما علم الاجتماع .

ويوصف علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنّه علم حديث العهد، لا بل من أكثر العلوم الاجتماعية حداثة. فقد استخدم مصطلح (الانثروبولوجيا الاجتماعية) للمرّة الأولى في عام 1980 عندما كرّمت جامعة ليفربول في بريطانيا السيد جيمس فريزر ومنحته لقب الأستاذ.

وممآ يدلّ على حداثة هذا العلم الذي يدرس الجانب الطبيعي التطبيقي، من البنى الاجتماعية، ذلك الاختلاف الذي ما يزال قائماً بين علماء الاجتماع حول هذه التسمية : (الأنثروبولوجيا الاجتماعية). ولكن على الرغم من حداثة هذا العلم، فقد مرّ بمراحل متعدّدة أسهمت في نشوئه وتطوّره واستكمال عناصره إلى حدّ بعيد، بدءاً من القرن الثامن عشر

وحتى الوقت الحاضر.

1_ القرن الثامن عشر :

تعدّ الدراسات التي أجريت في القرن الثامن عشر حول الأبنية الاجتماعية، وأنساق القيم السائدة فيها، من أهمّ الدراسات التي مهّدت لظهور الأنثروبولوجيا الاجتماعية. وكان في مقدّمتها كتاب " روح القوانين " الذي ألّفه مونتسيكو عالم الاجتماع الفرنسي، والذي أكّد فيه أنّ المجتمع البشري وما يحيط به، يتكوّن من مجموع نظم مترابطة، بحيث لا يمكن فهم القوانين عند أي شعب من الشعوب، إلاّ إذا درست العلاقات التي تحكم هذا النظام أو ذاك، بما فيها البيئة والحياة الاقتصادية، والسكان والمعتقدات والأخلاق السائدة، حيث ميّز الفيلسوف الفرسي مونتسيكو بين البناء الاجتماعي والنظام القيمي، على الرغم من العلاقة بينهما. وأوضح أنّ المجتمع ذاته وما يحيط به، يتكوّن من نظم يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وظيفيّاً، وبالتالي لا يمكن فهم القانون العام لدى أي شعب من الشعوب، إلاّ إذا درسنا العلاقات بين هذه القوانين كلّها، ومن ثمّ دراسة علاقة تلك القوانين بالبيئة الطبيعيّة والحياة الاقتصادية، وعدد السكان والأعراف والتقاليد السائدة أو التي كانت سائدة .

ولكن سان سيمون عالم الاجتماع الفرنسي أيضاً، يعدّ أول من رأى ضرورة إنشاء علم للمجتمع، واقترح إنشاء علم وضعي للعلاقات الاجتماعية. واعتبر أنّ مهمّة علماء الاجتماع لا تقتصر على دراسة المفاهيم والتصوّرات الاجتماعية فحسب، وإنّما يجب أن تشمل تحليل الوقائع والحقائق التي تعزّزها.

وإذا كان سيمون لم يقصد تماماً إنشاء علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية وإنّما قصد إيجاد علم خاص يدرس النظم الاجتماعية وعلاقاتها دراسة موضوعيّة، فإنّ ذلك تحقّق فعلاً بجهود تلميذه أوغست كونت.

هذا في فرنسا .. أمّا في إنكلترا، فقد ظهرت دراسات تمهيدية لعلم الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ولا سيّما أبحاث دافيد هيوم وآدم سميث حيث نُظر إلى كلّ مجتمع إنساني على أنّه نسق طبيعي ينشّأ من الطبيعة البشرية، وليس عن طريق التعاقد. ولذلك انتشرت مفاهيم جديدة، مثل : الأخلاق الطبيعية والدين الطبيعي. واعتبر المجتمع (أي مجتمع إنساني) ظاهرة طبيعية، لا بدّ من استخدام المنهج التجريبي والاستقرائي، عند دراسته بدلاً من المناهج العقلية الفلسفية .

وظهرت في هذه المرحلة التمهيديّة بوادر الاهتمام بالمجتمع البدائي، اعتماداً على رحلات الاستكشاف للآثار والمتاحف والمصادر المختلفة. وقد نُظر إلى الإنسان البدائي على أنّه متوحّش في مجتمعه، وهمجي في سلوكاته .. يتناقض كليّة مع إنسان المجتمع المتمدّن والمتقدّم. وخير مثال على ذلك، ما كتبه جون لوك عن الهنود الحمر في أمريكا، حيث أصدر أحكاماً عامة وغير دقيقة، عن هذه الشعوب البدائية .

والخلاصة، إنّ علماء القرن الثامن عشر وفلاسفته، مهما تكن آراؤهم، مهّدوا بشكل أساسي لظهور علم دراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وذلك نتيجة لاهتمامهم بالنظم الاجتماعية من جهة، واعتبارهم المجتمعات الإنسانية أنساقاً طبيعية، في إطار (الطبيعة البشرية) من جهة أخرى يجب أن تدرس من خلال المناهج التجريبية، على الرغم من أنّ دراسات هؤلاء المعنيين كانت بعيدة عن طبيعة هذه المناهج، وكانت تعتمد على التحليل الصوري (الشكلي

2-القرن التاسع عشر :

يعدّ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فترة نشوء الأنثروبولوجيا كعلم معترف به .. وقد أسهم في ذلك صدور العديد من الدراسات والكتب التي بحثت في هذا العلم وحدّدت معالمه الأساسية، ولا سيّما مؤلّفات كلّ من (تايلور وماكلينان) في إنكلترا، و (بافوفين) في سويسرا، حيث اهتمّ هؤلاء بجمع المعلومات عن الشعوب البدائية، وأبرزوها بصورة منهجية منظّمة، من خلال دراسة النظم الاجتماعية، وفي حدود الأبنية الاجتماعية لهذه المجتمعات، وليس في حدود الفلسفة وعلم النفس. فوضعوا بذلك أسس علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

فقد فسّر ماكلينان مثلا : تحريم زواج المحارم في بعض هذه المجتمعات البدائية (نظام الزواج الأكسوجامي)، استناداً إلى ظواهر اجتماعية أو عقائد خاصة بتلك المجتمعات، رافضاً إرجاعه إلى أسباب بيولوجية أو نفسية. كما أنّ طريقة الزواج التي تتمثّل في عملية خطف العروس، لم تستند إلى نظريات نفسية أو فلسفية، وإنّما ترجع إلى عادات مترسّبة من الماضي في ممارسة السبي والاغتصاب.

ولم يكن رواد الأنثروبولوجيا الاجتماعية في القرن التاسع عشر، يستخدمون الدراسات الميدانية، بل اعتمدوا على

أقوال الرحالة والمستكشفين ورجال الإدارة .. ولذلك، تعدّ هذه المرحلة فترة نشوء هذا العلم، وليست فترة كماله ونضجه، لأنّ الدراسات الميدانية التطبيقية تعدّ من الركائز الأساسية لتكامل هذا العلم، بطبيعته ومنهجيّته .

وقد تميّزت هذه المرحلة بظهور مدرستين متداخلتين، هما : النشوئية والتطوريّة. ويعود تداخلهما إلى أنّ العالِم الأنثروبولوجي، أو العالم الاجتماعي عندما يقوم بتفسير عمليّة التطوّر في أي نظام اجتماعي، من الماضي إلى الحاضر، لا بدّ أن يعمد إلى تحديد نشأة هذا النظام، وذلك بالعودة إلى المجتمعات البدائية لدراستها واستخلاص صفاتها وعلاقاتها، باعتبارها تمثّل التاريخ المبكر للجنس البشري .

مثال ذلك : (نشأة الأسرة وتطورها) من حيث الإباحية الجنسية، وتعدّد الزوجات وصولاً إلى وحدانية الزوجة. وكذلك الانتساب إلى الأم ومن ثمّ إلى الأب. وهذه العودة إلى الشعوب البدائية، لا تقتصر على الأنثروبولوجيا فحسب، بل تشمل سائر فروع المعرفة الخاصة بالعلوم الإنسانية .

وقد تأثّر رواد هذه المدرسة، وفي مقدّمتهم إدوارد تايلور بنظرية داروين، في تطوّر الحياة الطبيعيّة للكائنات البشرية، وتستند هذه النظرية إلى أنّ العناصر المركبّة في الحضارة الإنسانية، تتطوّر باستمرار من الأشياء البسيطة إلى الأشياء المعقّدة، وهذا ما ينسحب على تطوّر النظم الاجتماعية.

ويرتبط اسم داروين على الأقلّ في أذهان عامة المثقفين في العالم، بأنّه الرجل الذي نادى بنظرية التطوّر متحدّيا فكرة الخلق، وذهب في ذلك إلى حدّ القول بانحدار البشر من القردة العليا. ولكنّ الحقيقة أكثر تعقيداً من ذلك، حسب تعبير الأستاذ كريستوفر بوكر. فلم يكن داروين هو مؤسّس تلك النظرية، إذ سبقه إليها عدد كبير من العلماء الطبيعيين الذين كانوا يرون أنّ صور الحياة المختلفة، تطوّرت كلّها على شكل واحد بسيط، أي أنّ هذه الأشكال لم تخلق خلقاً مستقلاً ومتميّزاً كلّ منها عن الآخر .

وقد انتشرت هذه الأفكار قبل ظهور كتاب داروين عن " أصل الأنواع " بسبعين سنة على الأقلّ. وكان كلّ ما فعله داروين، هو أنّه قام بتجميع تلك الأفكار والآراء المبعثرة والمتناثرة، وتحليلها بطريقة منهجية، فيها قدر كبير من محاولة الفهم والتعمّق. ومن هنا ساعد كتاب " أصل الأنواع " في توطيد فكرة التطوّر وترسيخها. ولكنّ الأهمّ من ذلك، هو أنّ الكتاب يقدّم نظرية متماسكة عن الطريقة التي حدث فيها التطوّر، ووضع في ذلك مبدأه الشهير عن " الانتخاب الطبيعي " الذي فسّر به استمرار بعض الأنواع في الحياة ، واختفاء بعضها الآخر في معركتها الكبرى وصراعها من اجل الحياة.

وعلى الرغم من أنّه مبدأ بيولوجي في الأصل، إلاّ أنّه كان مفيداً للأنثروبولوجيين. وفي ذلك يقول الأستاذ ألفريد كروبر وهو من أكبر علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين : " إنّ هناك نوعاً من عدم التناسب بين الإسهام المحدود الذي أسهم به داروين في العلم، والذي ينحصر في وضع مبدأ الانتخاب الطبيعي وتجسيده، وبين كلّ ذلك التأثير الهائل الذي تركه تأسيس المبدأ البيولوجي على العلم الكلّي ". فقد دفع هذا المبدأ علماء القرن التاسع عشر، إلى البحث عن أصول الأشياء. وظهرت بذلك كتابات كثيرة تتناول أصل اللغة وأصل الحضارة، وأصل المجتمع والعائلة والدين، وما إلى ذلك بالطريقة نفسها التي تناول بها داروين مشكلة أصل الأنواع.

ولذلك ركّز العلماء التطوّريون، على موضوعات معيّنة : كالدين والعائلة، والنسب، واعتبروا أنّ الحضارات البدائية المعاصرة، تمثّل شواهد دالّة على مراحل التطوّر الاجتماعي التي مرّت بها الحضارة الحالية المتقدّمة .

ولكن ثمّة صعوبات قابلتهم، في دراسة التطوّر في العصور القديمة جدّاً، ولا سيّما عصور ما قبل التاريخ، فعمدوا إلى دراسة علم الآثار أو التخمين والافتراض من أجل إثبات نظريتهم.

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر، استكمل الأنثروبولوجيون وضع العناصر الأساسيّة لعلم الأنثروبوجيا الاجتماعية، عندما قام بعضهم بتصنيف المجتمعات البشرية على أسس أبنيتها الاجتماعية، وليس على أسس ثقافاتها فحسب. وهذا ما أدّى إلى تميّز الأنثروبولوجيا الاجتماعية عن الأنواع الأنثروبولوجية الأخرى، وأصبح موضوعها بالتالي، يختصّ بالعلاقات الاجتماعية وليس بالظواهر الثقافية .

واستناداً إلى ذلك، امتدّ منهج دراسة الأنثروبولوجيا إلى الدراسات الميدانية. واعتبرت الدراسة التي قام بها العالم الانكيزي هادون على منطقة مضائق (تورليس) مع بعثة علمية، نقطة تحوّل أساسية في تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعية، حيث رسّخت أمرين أساسيين :

أولهما :النظر إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية، على أنّها علم يحتاج إلى تخصّص كامل .

وثانيهما:اعتماد الدراسة الميدانية منهجاً رئيسيّاً في هذا العلم .

ومع أنّ " مورغان و بواز " سبقا " هادون" في دراسة بعض قبائل الهنود الحمر، وبعض قبائل الأسكيمو، فقد استطاع هادون أن يحدّد أساسيات منهج الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ويجذب بعض العلماء إلى ميدان هذا العلم الجديد، بعدما تخلّوا عن اختصاصاتهم الأصلية وأصبحوا من أئمّة الأنثروبولوجيا الاجتماعية في القرن العشرين، من أمثال : العالم ريفر الذي كان متخصّصاً في علم النفس، والعالم سليجمان الذي كان متخصّصاً في علم الأمراض. بل أنّ هادون نفسه، تخلّى عن تخصّصه الأصلي في (الحيوانات البحرية) وتحوّل إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

وهكذا، مثّل القرن التاسع عشر نشأة الأنثربولوجيا الاجتماعية، وإن كانت صورتها غير ناضجة وتحتاج إلى الكثير من جهود العلماء ولفترة من الوقت ليست قصيرة، حيث بدأت عناصر صورتها تستكمل وتزدهر في نهاية هذا القرن والنصف الأول من القرن العشرين.

3– **القرن العشرون** :

وصلت الأنثروبولوجيا مع بداية القرن العشرين إلى مرحلة التخصّص بدراسة البنى الاجتماعية للمجتمعات، ولا سيّما المجتمعات القديمة، حيث ازدادت الدراسات الميدانية، وفي مقدّمتها الدراسة التي قام بها الأنكليزي / رادكيف براون على سكان خليج البنغال، والتي اعتبرت المحاولة الأولى لفحص النظريات الاجتماعية بالعودة إلى مجتمع بدائي. وكذلك دراسة مالينوفسكي لسكان جزر (التروبوبرياند) لمدّة أربع سنوات، واستخدم فيها لغة أهالي هذه الجزر. فكان بذلك أوّل أنثروبولوجي يتمكّن من فهم حياة الناس وعلاقاتهم الاجتماعية، من خلال تتبّع عاداتهم وتقاليدهم، وتحليل مدلولاتها الاجتماعية .

فخلال الربع الأوّل من هذا القرن، عكف الباحثون الأنثروبولوجيون على جمع الوثائق التي يحتاجون إليها من أجل إثبات ظاهرة الاقتباس بين الثقافات المختلفة. ويلاحظ أنّ العامل التاريخي، من وجهة نظر تاريخ الطريقة الأنثروبولوجية، احتلّ مكان الصدارة في دراسة المجتمعات، حتى في المحاولات المبذولة لإثبات ظاهرة الانتشار الثقافي، الناجمة عن الاحتكاك بين الشعوب. ويعود ذلك إلى أنّ هؤلاء الباحثين، كانوا يدركون جيّداً أهميّة البيانات التاريخيّة في فهم العوامل الثقافية الدينامية.

أمّا في الربع الثاني من القرن العشرين، فقد أصبحت للأنثروبولوجيا الاجتماعية فروع مستقلّة تدرّس في الجامعات الأوروبية، ولا سيّما في الجامعات البريطانية .. وانتشر تطبيق منهج الدراسة الميدانية نتيجة لتأثير علم " مالينوفسكي" الذي بدأ منذ عام 1924، بتدريب الأنثروبولوجيين على القيام بالدراسات الميدانية .

وفي عام 1937، أعاد براون تنظيم معهد الأنثروبولوجيا في جامعة أكسفورد، وطوّر مناهجه. وبفضل جهود مالينوسكي وبراون وتلامذتهما من ذوي الخبرة في الدراسات الأنثروبولوجية الميدانية، أجريت دراسات متعدّدة على مجتمعات صغيرة في أفريقيا (دراسة نظم القرابة والطقوس والسياسة)، وأحدث المعهد الدولي الأفريقي في جامعة أكسفورد، تصدر عنه مجلّة متخصّصة في علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

وتابعت الأنثروبولوجيا الاجتماعية دراساتها المتقدّمة، في النصف الثاني من القرن العشرين، مماّ أدى إلى اتّساع هذه الدراسات وازدهارها، وبالتالي إلى التقارب بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية والأنثروبولوجيا الثقافية .. وتمّ اعتماد تطبيق المنهج التجريبي بدلاً من المنهج المقارن، حيث يستند كلّ باحث أنثروبولوجي – في تطبيق المنهج التجريبي – إلى نتائج دراسة باحث آخر لمجتمع معيّن، ويقوم بدوره بالتأكّد من صحّة هذه النتائج من خلال قيامه بدراسة مجتمعات أخرى. وبذلك، تصبح الفرضيّات المتفق عليها مبادئاً عامة في نهاية الأمر، أو معارف متداولة في مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية .. وهذا ما عزّز من علم الأنثروبولوجيا في العصر الحديث .

أهداف الأنثروبولوجيا الاجتماعية

1-تحديد نماذج عالية للأبنية الاجتماعية :

إنّ التوصّل إلى نوع من التصنيفات والنماذج للأبنية الاجتماعية، يعدّ أمراً صعباً بالنظر إلى عدم اتّفاق العلماء على هذه النماذج من جهة، ولعدم وجود مصطلحات عالمية لمفاهيم الأنثروبولوجيا الاجتماعية من جهة أخرى. هذا

بالإضافة إلى المشكلة ألأساسية التي تتمثّل في عدم وجود الدراسات الميدانية الشاملة للمجتمعات الإنسانية جميعها، على الرغم من محاولات الكثير من العلماء الوصول إلى ذلك الهدف .

فالإنسان وحده –من بين المخلوقات – يتمتّع بإمكانية تطوير سلوكه المكتسب ونقله بالتعلّم، وأنّ نظمه ومؤسّساته الاجتماعية، تتّصف بالتنوّع وبدرجة من التعقيد أكبر ممّا تتّصف به الأشكال الاجتماعية لأي نوع آخر من أنواع الحيوان .

ولذلك نجد أنّ المنطلق المنطقي لما يجرى من أبحاث حول المجتمع، هو دراسة أنظمة اجتماعية معيّنة واعتبار كلّ منها وحدة متكاملة. وممّا يسهل المشكلة بعض الشيء، اعتبار الأنظمة كيانات متميّزة عن المجتمعات، إذ يمكّننا ذلك من تجاهل المدى الواسع للاختلافات الفردية في التعبير عن نماذج النظام، ومن التركيز على النماذج نفسها وعلاقاتها المتبادلة .بيد أنّ المشكلة تظلّ معقّدة بما فيه الكفاية، وأوّل مهمّة للباحث هي التحقّق من النماذج وطبيعتها.

إنّ الصورة التي يرسمها باحث النظام الاجتماعي كلّه، يتكوّن من عناصر يجمعها واحدة واحدة، أي من النماذج الداخلة في تركيب النظام، ومن الملاحظات التي تتجمّع لديه عن تكيّفها وعلاقاتها المتبادلة، كما تتكشّف له في أثناء ممارسة الناس الفعلية لها. ولا يستطيع العضو العادي في أي مجتمع، أن يساعد الباحث في هذا العمل، إذ ما من أحد يدرك أنّ النماذج التي تنظّم التفاعلات الاجتماعية، تشكّل نظاماً إلاّ في حالة المجتمعات التي بلغت درجة عالية من التعقيد والتزمّت، كالمجتمعات في الصين وبلاد الإغريق في العصور القديمة، وأوروبا الحديثة.

ولمّا كان الإنسان قادراً على التفاهم مع أمثاله بواسطة أشكال اللغة الرمزية والمفاهيم، فهو وحده الذي استطاع أن يوجد أنواعاً لا تحصى من المباني الاجتماعية الأساسية كبنيان الأسرة. وإذا نظرنا إلى حياة الجماعة في أي نوع من أنواع ما دون الإنسان من الكائنات الحيوانية، وجدنا أنّ مبانيها الاجتماعية أكثر رتابة من المباني الإنسانية، وبالتالي يمكن توقّعها لأنّ كل جيل من أجيالها يتعلّم السلوك المشترك بين معاصريه جميعهم، بينما يبني الإنسان على تجارب كلّ من سبقه.

وقد أنفق العالم رادكليف براون ثلاثين عاماً في الدراسة، للوصول إلى بعض النماذج العامة للأبنية الاجتماعية. وبفضل جهوده وجهود علماء آخرين، أصبح هناك اتفاق شبه عام على بعض النماذج الأساسية للبناء الاجتماعي، مثال: (العشيرة – القبيلة – الدولة – الأمّة –المجتمع) .

واستطاع هؤلاء العلماء تحديد الأشكال الأسرية الرئيسة، في المجتمعات الإنسانية. ويعدّ ذلك خطوة هامة نحو الوصول إلى القوانين الاجتماعية، التي يترتّب عليها ذلك التنوّع الملحوظ في الأبنية الاجتماعية المختلفة، وما أطلق عليه اصطلاحاً : (الدراسات المورفولوجية).

2-تحديد مظاهر التداخل والترابط بين النظم الاجتماعية :

تبدو أهميّة استخدام المنهج الكلّي المتكامل في الدراسات الأنثروبولوجية، في تحقيق ذلك الهدف الذي يتمثّل في تحديد التأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية، التي تدخل في نطاق البناء الاجتماعي الواحد. ويهتمّ العلماء اليوم، بهذا الهدف، إذ لا يوافقون على اقتصار الدراسة الأنثروبولوجية على الجانب الوصفي فحسب، وإنّما لا بدّ من التحليل للكشف عن الوظائف الاجتماعية للنظم الاجتماعية، عن طريق تحديد التأثير المتبادل فيما بينها.

وقد عرضت أمثلة كثيرة عن هذا الموضوع، حيث يطلق العالم براون على الدراسة التي ترمي إلى تحقيق ذلك الهدف اصطلاحاً : (الدراسة الفيزيولوجية) تمييزاً لها عن الدراسات الخاصة بالهدف السابق (الدراسات المورفولوجية).

إنّ مشكلة حقيقة الأنظمة الاجتماعية، هي مشكلة فلسفية أكثر منها مشكلة عملية. والمهمّ في الأمر هو أنّ مركّب النماذج الاجتماعية التي تتكيّف بعضها مع بعض تكيّفاً متبادلاً _ وهو ما اصطلح على تسميته بالنظام الاجتماعي – يتطوّر ويعمل بارتباط مستمر مع سائر عناصر الثقافة، وأنّ النماذج يجب أن تتكيّف مع هذا النسق تماماً كما تتكيّف بعضها مع بعض. أمّا المجموع الكلّي للثقافة، فيجب أن يتكيّف بدوره أيضاً، مع البيئة الطبيعية للمجتمع، لأنّ الإنسان قد يطوّر وسائل كثيرة ومتنوّعة للسيطرة على البيئة واستغلالها، ولكنّه لا يستطيع أبداً أن يتحرّر من أثرها .

ولذلك، يمكن القول : إنّ كل نظام اجتماعي، هو جزء من وحدة متناسقة متكاملة، أوسع جدّاً في مداها من النظام نفسه، أمّا العناصر التي تتكوّن منها هذه الوحدة، فهي متشابكة ومتداخلة. ولا يمكن فهم النظام الاجتماعي، إلاّ إذا درس في ضوء علاقته بالوحدة المتناسقة الكبيرة، التي تضمّ عناصر أخرى تظلّ تفرض باستمرار حدوداً على نموّه وعمله.

وبذلك يكون على الباحث – من وجهة النظر الوظيفية –أن يأخذ في الحسبان عاملين أساسيين يلعبان دوراً تبادلياً وفاعلاً في هذا النظام الاجتماعي أو ذاك، وهما: النموذج الذي يعرفه الأفراد ويؤثّر في سلوكاتهم من جهة، والثقافة التي ينشأ عليه هؤلاء الأفراد، والتي تعنى بتلبية الحاجات الكليّة للمجتمع من جهة أخرى، وذلك لأنّ الأنظمة الاجتماعية لا يمكن أن تؤدّي وظيفتها، إلاّ كجزء من المجموع الكلّي للثقافة .

3-تحديد عمليات التغيير الاجتماعي :

تهدف الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية، إلى تحديد خصائص التغيير الاجتماعي وعملياته، والتي تحدث في الأبنية الاجتماعية، سواء ذات المعدّل السريع في التغيير أو المعدّل المتوسّط أو المعدّل البطيء .

وقد لا حظ " براون " أنّ الدراسات الخاصة بذلك الهدف، اهتمّت بدراسة أثر الحروب الاستعمارية على النظام القبائلي في أفريقيا وآسيا. ولكنّ التغيير الاجتماعي عملية معقّدة، متعدّدة الجوانب ومختلفة العوامل. ولذلك، فهي أعمق في دراستها من حيث الجمع بين عناصر حضارتين مختلفتين. فعملية التغيير أو التطوّر، تستلزم ظهور أشكال جديدة من الأنماط والأبنية الاجتماعية، كما تستلزم أيضاً، الانتقال من الأشكال البسيطة إلى الأشكال المركّبة.

فلكلّ مجتمع طريقته الخاصة في الحياة، والتي يطلق عليها العلماء الأنثروبولوجيون مصطلح " الثقافة ". ويعتبر مفهوم الثقافة من أهمّ الأدوات التي يتعامل معها الباحث الأنثروبولوجي. وكما هي الحال في الأبحاث العلمية الأخرى، تنحصر الخطوة الأولى في جمع الحقائق عن الأنماط الثقافية المختلفة، ويتطلّب هذا من العالم الأثنولوجي، القيام بأبحاث ميدانية في أماكن نائية، وإلى العمل في أنوع مختلفة من المجتمعات.

وبما أنّ الكائنات البشرية تعيش في تجمّعات (مجتمعات) وتطوّر طرقها الخاصة في الحياة بما يتلاءم مع أوضاعها الخاصة والعامة، فإنّ للثقافة هنا دوراً كبيراً في عمليات التغيير الاجتماعي، الفكري والسلوكي .

ومن هنا يتعيّن على الدراسات الأنثروبولوجية أن تحدّد عمليات التغيير الاجتماعي، بطريقة الكشف عن الأنماط والأبنية الاجتماعية الجديدة، وكذلك تحديد كيفيّة تطوّر الظواهر الاجتماعية البسيطة، إلى ظواهر اجتماعية مركّبة.. وهذا يتطلّب الدراسات الميدانية المركّزة، والمعمّقة.

أصبح واضحاً أنّ الأنثروبولوجيا، تدرس الإنسان الفرد وأعماله ضمن النوع البشري، وما طرأ عليه من تغيير أو تطوّر نحو الأفضل، سواء في عضويته أو في مظهره الخارجي، وذلك بتأثير الظروف الطبيعية والاجتماعية المحيطة به.. إضافة إلى دراسة الإنسان من طبيعته الاجتماعية بصفته عضواً في جماعة بشرية (مجتمع بشري)، حيث يشارك علم الأنثروبولوجيا العلوم الإنسانية الأخرى. وهذا ما أدىّ إلى ظهور ما سمّي بعلم (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) .

أي أنّ الأنثروبولوجيا الاجتماعية، تدرس المجتمعات الصغيرة وشبه البدائية التي تشكّل نسيجاً اجتماعياً بسيطاً ومحدوداً، بفنونها واقتصادها، وحيث تسود الأميّة والأعمال اليدوية الأولية، وتتابع تطوّرها، وصولاً إلى دراسة المجتمعات الحديثة والمعقّدة في نسيجها الاجتماعي والثقافي والاقتصادي .

مفهوم البناء الاجتماعي وخواصه :

يتكوّن البناء الاجتماعي من عناصر متشابكة، يتمّ التفاعل فيما بينها بشكل إيجابي (تبادلي وتكاملي). ولذلك يرتبط البناء الاجتماعي بالأسس التي تعمل على تنظيم الحياة الاجتماعية والبيولوجية .

يعرّف " إيفانز بريتشارد " البناء الاجتماعي بأنّه : " نسق اجتماعي يتميّز بدرجة معيّنة من الثبات والاستقرار .. ويتألّف من جماعات وزمر، مثل : العشائر والقبائل والأمم، تقوم كلّ منها بتنظيم علاقات الأفراد الذين ينتمون إليها".

ووافق براون على تعريف " بريتشارد "، ولكنّه أضاف إليه بعض العناصر، كالعلاقات التي تجمع بين شخصين أو أكثر، مثال : (نظام القرابة – العلاقات الثنائية كعلاقة الأب بابنه والأخ بأخته) وكذلك عمليات التمييز بين الأفراد على أساس الدور الاجتماعي، كأدوار النساء أو الرجال أو الزعماء .

وقد ركّز " براون " على العلاقات الاجتماعية العامة التي تتكرّر فيها الأنماط الاجتماعية باستمرار، والتي يتكوّن منها البناء الاجتماعي. وربط ذلك كلّه بموضوع ثبات البناء الاجتماعي واستمراره، من خلال الاستقرار الديناميكي الذي

يتغيّر بدرجات متفاوتة .

ويؤكّد "براون " : أنّ الحالات الفردية التي تتجسّد فيها تلك العلاقات الاجتماعية، ليست هي موضوع الدراسة العملية للبناء الاجتماعي، إنّما هو السلوك المتكرّر لعدد من الأفراد، والذي يمثّل نمطاً اجتماعياً معيّناً، وبالتالي يتكوّن البناء الاجتماعي من هذه الأنماط مجتمعة.

أمّا قاموس العلوم الاجتماعية، فيطرح ثلاثة تعريفات للبناء الاجتماعي، كما يلي :

التعريف الأول : يحدّد البناء الاجتماعي بأنّه النموذج المستقرّ للتنظيم الداخلي لجماعة ما. أي أنّه يتضمّن مجموعة العلاقات الموجودة بين أفراد الجماعة، بعضهم مع بعض من جهة، والعلاقات الموجودة بين الجماعة وجماعة أخرى من جهة ثانية .

التعريف الثاني : يرتبط بخصائص الجماعات ونماذج الثقافات. ويتكوّن من أجزاء يعتمد بعضها على بعضها الآخر اعتماداً متبادلاً .

التعريف الثالث : يميّز بين نوعين من البناء الاجتماعي، حيث يقسم إلى :

- **الزمر الاجتماعية** : التي تنقسم بدورها إلى زميرات صغيرة، ومنها إلى وحدات أصغر منها. وتقسم تلك الزميرات (الوحدات) إلى أفراد أو أعضاء، يتميّز كلّ منهم عن الآخر بوظائف اجتماعية يعمل على تحقيقها. وبوضع اجتماعي معيّن يحتلّه بين الأفراد الآخرين .
- **النموذج الثقافي** : أي أنّ كل نموذج من النماذج الثقافية، يقسم إلى العناصر المكوّنة له، كالثقافة المرتبطة بالعادات الشعبية، أو النماذج الثقافية المرتبطة بالقيم والأعراف وأساليب التعامل المختلفة.

واستناداً إلى ما تقدّم، يمكن القول : إنّ البناء الاجتماعي يتّسم بالخصائص التالية :

1/1- يتكوّن البناء الاجتماعي من أنماط العلاقات الاجتماعية، ولذلك، لا يمكن ملاحظته بشكل مباشر، إلاّ من خلال الصورة المحسوسة للعلاقات الاجتماعية بين الأفراد أو الجماعات، في مجتمع معيّن .

1 /2-البناء الاجتماعي، كلّ متكامل أو نسيج متشابك الأجزاء . وتعدّ دراسة أجزاء البناء الاجتماعي كلّها، من أهمّ خصائص الأنثروبولوجيا الاجتماعية، والتي تميزها من العلوم الاجتماعية الأخرى. وذلك بالكشف عن العلاقات المباشرة وغير المباشرة، التي توجد بين أي عنصر وأجزاء البناء الاجتماعي .

3/1-البناء الاجتماعي مستقرّ وثابت نسبيّاً، إذ إنّ من أهمّ شروطه، الحفاظ على تماسكه واستمراريته فترات طويلة من الزمن. ولكن هذا الاستمرار لا يقصد به الجمود، بل الاستمرار المتغيّر كما هي الحال في استمرار البناء العضوي للجسم الحي.

وإذا كان علماء الأنثروبولوجيا في الجيل الماضي، قد بهرهم التنوّع الغريب في الثقافات التي تعرّفوا إليها، فخامرهم الشكّ في إمكان التوصّل إلى تعميمات صحيحة بشأنها، فلا بدّ من الإقرار، في هذا المقام، أنّه يكاد يكون من المستحيل، صوغ تعميمات عن سلوك الجماعات البشرية، أي عن الظاهرات الاجتماعية والثقافية، دون أن تكون هناك بعض الاستثناءات الواضحة التي تشذّ عن القاعدة العامة.

للمزيد من التوسع : انظر / **عيسى الشماس: علم الانسان-الانثروبولوجيا**

الانثروبولوجيا الحضرية

عن : . محمد حسن غامري : الانثروبولوجيا الحضرية - مع دراسة عن التحضر في مدينة العين – ابوظبي- الطبعة الأولى – دار المعرفة الجامعية – مصر - 1984 .

البدايات الأولى للانثروبولوجيا الحضرية:

ظهرت الانثروبولوجيا الحضرية بصورة واضحة كفرع متخصص في منتصف الستينات ، وأجريت كثير من الدراسات الانثروبولوجيا في المجتمعات المختلفة ، وخاصة في المجتمعات النامية و أصبح علماء الانثروبولوجيا يهتمون بدراسة الظواهر و المشكلات الحضرية ، كما تحدد للانثروبولوجيا دورا مميزا في تناول كثير من المسائل الحضرية التي تهتم بها العلوم الأخرى مثل علم الاقتصاد و علم السياسة وعلم الاجتماع الحضري .

ومن ابرز العوامل التي جعلت الانثروبولوجيا تتجه إلى دراسة المجتمعات الحضرية قيام الحرب العالمية الثانية ، فقد احدثت تغيرات هامة في اتجاه الدراسات الأنثروبولوجية الميدانية . فالانثر و بولوجيون كانوا حتى قبل قيام الحرب العالمية الثانية يهتمون بدراسة المجتمعات البسيطة والبدائية ، وخاصة في افريقيا وشرق أسيا واستراليا و أمريكا اللاتينية . وبعد قيام الحرب العالمية الثانية تعذر على
الانثروبولوجيين الاستمرار في إجراء دراساتهم الميدانية على هذه المجتمعات ، وذلك بسبب تعطل الملاحة البحرية ، وخطوط المواصلات الجوية ، بالإضافة إلى احتلال كثير من هذه المجتمعات وفرض السيطرة العسكرية عليها .

و قد تبلورت في هذه المرحلة التاريخية أراء الانثروبولوجيين على ضرورة اعادة تعريف علم

الانثروبولوجيا ، بأنه دراسة كل الشعوب في كل أنواع المواقف الاجتماعية و الثقافية . فقد أشار راد كليف براون في مقاله عن معنى و مجال الانثر وبولوجيا الاجتماعية عام 1944 ان ميدان
الانثروبولوجيا الاجتماعية هو كل المجتماعات البشرية دون شك . و عام 1939 أشار – لويد وارنز – ان كل المجتمعات البشرية بدائية او متحضرة ، بسيطة او معقدة تعتبر موضوع دراسة الانثروبولوجيا .

و إزاء ذلك اتجه الانثروبولوجيون إلى دراسة المجتمعات المحلية القروية ، على اساس انها مجتمعات صغيرة و منعزلة دون النظر الى القوى الخارجية التي تؤثر عليها كمجتمعات محلية . الا ان هذه القرى رغم انها وحدات اجتماعية صغيرة ، فهي تشكل جزءا من انساق اقتصادية و سياسيو و ثقافية كبيرة . و قد ادرك الانثروبولوجيون بعد ذلك وجود روابط بين القرية و المجتمع الكلي التي تعتبر جزءا منه ، مما ادى الى محاولة تعريف المجتمع القروي على انه نمط من النسق الاجتماعي .

و قد ادى اهتمام الانثروبولوجيون بدراسة المجتمع القروي الى ضرورة التمييز بين المجتمع الشعبي و الحضري ، و ظهر ذلك بوضوح في الدراسة التي اجراها "روبرت ردفيلد" على مجتمعات محلية في "يوكتان" Yucatan ، ولكنه في البدء لم يميز بين المجتمعات الشعبية Folk و المجتمعات القروية ، حيث جمع بينهما في مفهوم واحد . و أختار هذه المجتمعات على أساس معايير محددة و هي الحجم و التجانس و البعد عن التأثيرات الحضرية . و قد كانت أصغر هذه المجتمعات و أكثرها انعزالا جزءا من نسق اجتماعي و سياسي و اقتصادي ، انعكست أثاره مباشرة على هذا المجتمع الصغير . و لم يتعرف ردفيلد على هذه الحقيقة في البدء ، مما ظهر أثر ذلك في الصياغات النظرية التي شيدها ، و خاصة عندما درس قرية "تيبوزتلان" . على أنها مجتمع محلي شعبي و منعزل ، فاتسمت نظرته بالتحيز

وادرك ردفيلد هذا الخلط فحاول ان يعدل من نظرته الى المجتمع الشعبي ظهر ذلك في مقال بعنوان "المجتمع الشعبي البسيط" (1) في عام 1947 ، و أوضح في هذا المقال بعض المعايير مثل المقدس مقابل العلمانية ، و الثبات مقابل سرعة التغيير ، بالإضافة الى معايير الحجم و التجانس و البعد عن التأثيرات الحضرية . و في ضوء هذه المعايير حدد خصائص المجتمع الشعبي بالتجانس و المقدس ، بينما يتميز المجتمع الحضري أنه غير متجانس و علماني .

و رغم محاولة (ردفيلد) لإقامة هذا التمييز فان المصدر الرئيسي للخلط يمكن أساسا في استخدام كلمة المجتمع التي تتعارض مع مصطلح "المجتمع المحلي" فالمجتمع الشعبي و المجتمع الحضري لا يعتبران أنساقا اجتماعية كلية و لكنهما مجرد أنماطا من المجتمعات المحلية . و لا يوجد شيء يمكن أن نطلق عليه مجتمع حضري ، فالمجتمعات المحلية الحضرية ما هي الا أجزاء أساسية لكل من المجتمعات الريفية و الصناعية .

و يهمنا هنا أن نوضح أن (ردفيلد) قد أسهم في تطوير الدراسات الأنثروبولوجية للمجتمعات المعقدة و كان ذلك له أثر هام و دور كبير في مجال الدراسات الحضرية ، كما أن عناصر اطاره النظري كانت مناسبة كمدخل لإجراء دراسات أنثروبولوجية حضرية . الا أن اول محاولة أنثروبولوجية لدراسة الحياة الحضرية في الولايات المتحدة الأمريكية ظهرت في عام 1930 ، و كانت بمثابة القنطرة التي تربط بين السوسيولوجي و الإنثروبولوجي و كان صاحب هذه المحاولة هو (لوليدورانر(2)W.lolyd Warner)

الذي مزج بين استراتيجيات البحث التي تشتمل على الملاحظة المشاركة ، و تكنيكات البحوث المركزة . و قد حرص (وارنر) أن يتدرب قبل اجراء دراسته على البحث الأنثروبولوجي حيث قضى ثلاث سنوات يدرس قبيلة استرالية تعرف باسم قبيلة (مورنجين) . و قرر (لويد وارنر) بعد اجراء هذه الدراسة أن ينقل تكنيك البحث الأنثروبولوجي المركز الى دراسة مدينة أمريكية ، و كان ثمرة هذا العمل ظهور سلسلة من

الدراسات عن مدينة يانك سيتي Yank city. و قد وصفت هذه الدراسات المجتمع المحلي بالتفصيل و ركزت على مناطق مكانية محددة داخل المدينة ، حيث تختلف أساليب الحياة بين الطبقات الإجتماعية .

و تأثر تلاميذ " لويد وارنر" باتجاهه في دراسة المجتمع المحلي ، فقاموا بدراسات عن مجتمعات محلية مختلفة داخل الولايات المتحدة الأمريكية . وتتصف معضم هذه الدراسات بالكلية holistic حيث تناولت وصف طرق الحياة داخل المجتمع المحلي . و عرف تلاميذ (وارنر) مدى امكانية أدوات البحث الأنثروبولوجي ، و اقترحوا أن التكنيكات التي تستخدم في الدراسات الأنثروبولوجية في المجتمعات التقليدية ، يمكن استخدامها فقط في المجتمعات المحلية الصغيرة التي تقل عن عشرين ألف نسمة ن و كانت المراكز الحضرية التي قاموا بدراستها هي من النوع الذي يطلق عليه اصطلاح (البلده) Town أكثر مما يطلق عليه اصطلاح مدينة City .

و تأثر بعض الباحثين بمنهجية (وارنر) مثل وليم فوت هوايت William Foote White في دراسته الشهيرة (مجتمع ناصية الشارع ، و أيضا تأثر هربوت جانز Gans بهذه المنهجية في دراسته (القرويون الحضريون) (1) و ركز في هذه الدراسة على التجانس العرقي بين السكان كما درس أيضا المجتمعات المحلية للضواحي الحضرية ، و أكد على أوجه التشابه بين أساليب الحياة الحضريه . و يلاحظ أن كلا من (هوايت) و جانز يعتبران باحثان في المجال السوسيولوجي ، و لكنهما استخدما الدراسة المركزة و الوصف الإثنوجرافي ، و قد سبق أن استخدم " وارنر" هذه الأساليب في دراسته .

و ظهر التعاون بين السوسيولوجيين و الأنثروبولوجيين في الدراسات الأنثروبولوجية الحضرية ، فقد تعاون الأنثروبولوجي " أرثرفيدش" Arther Vidich مع السوسيولوجي (جوسف بينسمان) Joseph Bensman في دراسته مجتمع محلي بولاية نيويورك ، و ظهرت هذه الدراسة في كتاب بعنوان (مدينة صغيرة في مجتمع عام) (2) ، و قد استخدما التكنيكات التي يستخدمها الأنثروبولوجيون . و تنظر هذه الدراسة الى المدينة على أنها ليست وحدة اجتماعية منعزلة ، و انما لها علاقة بالإقليم الأوسع أي في علاقتها مع المجتمع القومي الكلي . و أصبح هذا الإتجاه واضحا في دراسات المجتمع المحلي الأمريكي بعد أن أدخل عليه السوسيولوجيون و الأنثروبولوجيون تعديلات ، مما أدى الى ظهور دراسات حديثة في الأنثروبولوجيا الحضرية مثل دراسة (ليبو)

Liebow بعنوان Tallyis Corner ، التي استخدم فيها مدخل " وارنر" في دراسة المجتمع المحلي .

و قد كان لنتائج هذه الدراسات صدى كبير عند بعض الأنثروبولوجيين في الولايات المتحدة الأمريكية ، و خاصة عندما ظهرت الآثار الإجتماعية للتحديث في المجتمعات الريفية ، و ما صاحب ذلك من هجرات ريفية – حضرية ، و أصبح من الصعب تجاهل تأثير ذلك على المجتمعات المحلية الحضرية ، مثل محاولة (بيلز) Beals التي ظهرت في مقالته " الحضرية – التحضر – التثقف" ، و كان يهدف

من هذا المقال أن يميز بين الموضوعات الثلاثة و تظهر أهمية مقال (بيلز) في اثارة الأنثروبولوجيين و توجههم نحو دراسة المدن و المجتمعات المعقدة ، بدلا من اقتفاء أثر السيكولوجيين التي تهتم بالجوانب السيكولوجية .

و بينما كان الأنثروبولوجيون الأمريكيون منغمسين في دراسة مدن أمريكا اللاتينية ، كاستجابة لحركات الهجرة الريفية الحضرية ، فان نفس الإتجاه وجد عند الأنثربولوجيين البريطانيين ، اهتم علماء الأنثربولوجيا بدراسة مدن افريقيا ، و خرجوا عن التقليج المتبع في اجراء دراسات تقليدية و أشكال ثابتة من حياة القبائل ، و أصبحوا يهتمون بموضوعات مثل التغير الإجتماعي ، و تحرك سكان القبائل الى داخل المراكز الحضرية . و تتناول كثير من الدراسات المشكلات الحضرية في مدن غرب و شرق افريقيا مثل تكيف المهاجرين في

المدن و الإتحادات الطوعية و نظام الأسرة و القرابة و المشاركة في الحياة السياسية . كما ظهرت أيضا دراسات أنثروبولوجية في أمريكا اللاتينية مثل دراسة الأحياء الفقيرة و ظاهرة الفقر التي تناولها أوسكار لويس و توصل ألى نظريته ثقافة الفقر ، و كذلك مشكلات التعليم و الصحة . و عموما فان الإسهام الذي تستطيع الأنثروبولوجيا الحضرية أن تقدمه لكي تلقي الضوء على المشكلة الحضرية المعقدة هو تقديم أنماط بنائية للتحليل موجهة نحو البناء الحضري الكلي .

تأخر ظهور الأنثروبولوجية الحضرية

و رغم كل الاهتمام الذي ظهر عند معظم الأنثروبولوجيين بدراسة المدن و الحياة الحضرية ، الا أن التمييز أو التعريف الفعلى للأنثربولوجيا الحضرية قد استغرق وقتا طويلا . و يرجع ذلك الى حرص الأنثروبولوجيين في الولايات المتحدة الأمريكية على المحافظة على وحدة الأنثروبولوجيا ، و تميزها بوضوح عن العلوم الإجتماعية الأخرى و خاصة علم الإجتماع . بالإضافة الى استمرار وجود النظرة التقليدية للأنثروبولوجيا على أنها تختص بدراسة الشعوب البدائية ، و لكن هذه النظرة بدأت تتغير كما سبق الإشارة الى ذلك . فاتجه الأنثروبولوجيون بدراستهم نحو البيئات الحضرية ، و قد تطلب ذلك تغييرا في أساليب البحث مع الإحتفاظ بطريقة رؤية المجتمع الإنساني الذي تميزت به الدراسات الأنثروبولوجية التقليدية . فقد اعتاد الأنثروبولوجيون أن يحددوا أنماط السلوك الإجتماعي في ضوء الصيغة العامة التي تميز المجتمع ككل ، و لذلك وصف دراستهم للمجتمع بالطريقة الشمولية . و تقوم النظرة الشمولية على مبدأين أساسيين تميزت بهما الأنثروبولوجيا التقليدية ، المبدأ الأول يرى أن أي مجتمع من المجتمعات يشكل نسقا اجتماعيا متكاملا ، بينما المبدأ الثاني يدرس ثقافة المجتمع ، و يتناولها بالتحليل بعيدا عن السلوك الفردي ، و يدرسها في ضوء الأنماط العامة للسلوك التي تشكل التنظيم الإجتماعي أو ما يعرف بالبناء الإجتماعي ، و الذي يمكن دراسته من خلال الأنساق الإجتماعية القايمة مثل النسق الإقتصادي و

النسق السياسي ، و النسق الديني ، و النسق العائلي ، و تختلف هذه الأنساق من مجتمع الى آخر . و ينظر الأنثروبولوجيون الى هذه الأنساق على أساس أنها متساندة تساندا وظيفيا ، فالنسق الديني قد يؤثر على النسق العائلي ، و أي تغير في أحد الأنساق يؤدي الى تغير في النسق الآخر ، و هذا يؤثر بدوره على التنظيم الإجتماعي . و ينتج عن التساند الوظيفي قواعد و أنماط السلوك التي تجعل أفراد المجتمع الواحد يشارطون في قواعدهم واحدة تميز مجتمعهم ، كما أنها تحدد سلوك الفرد كعضو في مجتمع معين ، و تعمل على ايجاد التجانس في الفعل و المعتقدات . و تشكل هذه القواعد ثقافة مجتمع ما ، و لذلك فالأنثربولوجيا تعالج الثقافة ككل بغض النظر عن الأفراد المكونين لهذه الثقافة .

و عندما اتجه الأنثربولوجيون الى دراسة المجتمعات الحضرية ، حرصوا على استخدام النظرة الشمولية مما أدى الى صعوبات عديدة في دراسة البيئات الحضرية التي تحتوي على كم كبير من البشر ، بالإضافة الى التباين الكبير في الفروق الثقافية بين الأفراد الذين يعيشون فيها .

و قد واجه الباحث الأنثروبولوجي في البيئة الحضرية صعوبة استخدام النظرة الشمولية ، مما أدى الى استخدام أساليب منهجية أكثر ملائمة للبحث الأنثروبولوجي في الدراسات الأنثروبولوجية الحضرية

و ان كانت النظرة التقليدية للأنثروبولوجيا قد سيطرت على معظم الأنثروبولوجيين في دراسة البيئات الحضرية مما أدى الى ظهور صعوبات منهجية أكثر ملائمة للبحث الأنثربولوجي في الدراسات الأنثربولوجية الحضرية .

و ان كانت النظرة التقليدية للأنثروبولوجيا قد سيطرت على معظم الأنثروبولوجيين في دراسة البيئات الحضرية مما أدى الى ظهور صعوبات منهجية ساعدت على تأخر ظهور الأنثربولوجيا الحضرية . الا أن هناك جانب آخر قد أدى بطريقة غير مباشرة الى ضرورة أن يتجه الأنثربولوجيون الى دراسة البيئات الحضرية ، و يتمثل هذا الجانب في الهبوط النسبي لتمويل البحوث الميدانية التي تجري في مجتمعات ما وراء البحار الذي تتميز به الأنثربولوجيا التقليدية و وجد الأنثربولوجيون أنفسهم مضطرين الى البقاء في بلادهم ، و أن يقوموا باجراء دراساتهم على مجتمعاتهم ، لأن مسألة التمويل أصبحت شيئا صعبا و غير ميسور ، فتركزت معظم بحوثهم في المدينة . و قد ارتأى بعض الأنثربوجيين أنه من الأفضل أن تكون دراساتهم داخل مجتمعاتهم حتى يمكنهم الإسهام في حل مشكلات التنمية و تحسين الظروف الإقتصادية و الثقافية . و عموما في ضوء كل هذه الظروف المنهجية و المجتمعية ظهرت الأنثروبولوجيا الحضرية و أصبحت فرعا مميزا في الدراسات الأنثروبولوجية . و قد شهدت السنوات الأخيرة نموا سريعا في البحوث الأنثروبولوجية الحضرية في المجتمعات النامية في أمريكا اللاتينية و أفريقيا و آسيا ، كما وصل الأنثربولوجيون الى درجة عالية من الكفاية في استخدام الإحصائيات و جمع البيانات الكمية و الإنتفاع بها ، و أيضا ظهرت جوانب عديدة يتعاون فيها الأنثبولوجيون مع التخصصات الأخرى ، و الإستفادة

الكاملة بنتائج البحوث التي تجريها هذه التخصصات . و رغم كل الصعوبات المنهجية التي واجهت الأنثبولوجيون في دراسة البيئات الحضرية و المدينة ، الا أنهم أجروا عديد من الدراسات الأنثروبولوجية في مجالات مختلفة مثل دراسات الهجرة الريفية الى المدينة ، و دراسات تناولت مشلات محددة ، و أخرى دراسات اثنوجرافية تقليدية داخل المدينة ، و يمكن تصنيف هذه الدراسات وفق ثلاث أنواع رئيسية من الداخل .

المدخل التقليدي في الدراسات الأنثروبولوجية الحضرية

يتضمن الإطار العام للانثروبولوجيا الحضرية مجموعة من الدراسات تتبع الإتجاه التقليدي في الفكر الأنثربولوجي ، و تركز على موضوعات الهجرة الريفية – الحضرية ، و التكيف الذاتي للفلاحين في البيئة الحضرية . و تعتبر هذه الدراسات امتدادا للدراسات الأنثربولوجية التي تجري في القرية و المدينة ، لأن السكان الريفيين في تحركاتهم نحو المدينة ، عادة يعيشون بين القرية و المدينة .ثم تغير الإهتمام نحو دراسة الفلاحين المقيمين في المدينة ، دون أن تكون هناك استراتيجية بحثية لمتابعة نزوح الفلاحين من القرية الى المدينة ، أو حتى محاولة التعرف على تأثير الهجرة على الريف نفسه (1) .

و تؤكد هذه الدراسات على أسباب الهجرة و أنماطها و عمليات التكيف الذاتي مع الواقع الحضري ، و ظهرت دراسات عن عملية التكيف الذاتي في مناطق كبيرة من العالم ، و تشكل جزءا كبيرا من التراث في دراسة الفلاحين في المدن . و تفترض هذه الدراسات أن المدينة تعتبر بيئة اجتماعية جديدة على القادمين من الريف ، فالمهاجر الريفي يواجه أشخاصا لم يألفهم من قبل ، و يقيم في أماكن غير مألوفة لديه . كما يواجه هؤلاء القادمون الى المدينة مواقفا جديدة ، و نظما جديدة و عليهم أن يجدوا عملا و مسكنا ، و موقعا اجتماعيا . و تختلف كل هذه الجوانب بدرجة كبيرة عن الجوانب التي يعرفونها في القرية .

و يقتضى أيضا من المهاجريين الريفيين أن يكتسبو عادات جديدة في استخدام النقود ، و أن يعيدوا تنظيم و توجيه برامجهم اليومية . و يغيروا اتجاهاتهم نحو الوقت حتى يتثبت لديهم الإحساس بالتوقيت في ممارسة المناشط اليومية .

و عليهم كذلك تنمية أنماطا سلوكية اجتماعية جديدة تساعدهم على الخضوع للقانون الرسمي . و تمكنهم من التعامل مع المؤسسات القضائية و العلاجية و التربوية و الاقتصادية بالمدينة .

و تشمل دراسات التكيف على الإهتمامات التالية :

أ– الدراسات التي تنظر الى الإستراتيجيات التي تستخدم مرونة الروابط الإجتماعية من خلال امتداد القرابة ، و روابط القبيلة ، و الروابط الإقليمية ، و روابط الصداقة .

ب- الدراسات التي تصف نقل النماذج التنظيمية و البنائية من المجتمع المحلي القروي الى المدينة .

ج- الدراسات التي تصف المشكلات التي تنبثق عن تكوين جماعات جديدة متماثلة و متماسكة في بيئة حضرية غير متجانسة .

و قد ينظر بعض الدارسون الى عملية التكيف من خلال المضمون الحضري الكلي للمدينة ، فبعض الفلاحين يحتفظون بروابط مع موطنهم الريفي ، حيث يتركون وراءهم علاقات مع الناس و ملكياتهم ، و يضطرون الى القيام بزيارات الى القرية ، و يتبادلون النقود و الهدايا ، و رعاية و تربية الأطفال الذين قد

يتركوهم في القرية . و عادة ترتبط الزيارات بالعطلات و المناسبات الدينية ، أو في ظروف الأزمات التي تتعرض لها الأسر مثل الوفاة ، و كذلك أحداث دورة الحياة ، و تظل الأرض و الملكية تربط المهاجر الريفي بالقرية .

و تقوم علاقة المدينة مع القرى المتاخمه لها على أساس أنماط التبادل و التفاعل . و تعمل كمصدر لتغيير كل من القرية و المدينة. و يرتكز بعض الأنثربولوجيين في دراستهم على وجود الفلاح في المدينة . و يتعمقون في دراسة عمليات التبادل و التفاعل التي تشكل مصدرا للتغيير كما يهتم أيضا البعض الآخر من علماء الأنثربولوجيا الحضرية بدراسة المساءل التقليدية للتغير الثقافي و التنمية الإقتصادية ، و مدى تأثرها بهذه الروابط ، التي ينظرون اليها على أنها تشكل قوى كبيرة في عمليات التغيير و التنمية .

و رغم اهتمام الأنثربولوجيين باجراء دراسات عن عملية تكيف الفلاحين في المدينة . الا أن البعض الآخر من الأنثربولوجيين أثار بعض الإنتقادات الى مثل هذه الدراسات . فقد استندت على اجراء دراسات تحليلية مقارنة بين جماعات مختلفة من الفلاخين المهاجرين الى المدينة ، و صاغت لذلك استراتيجيات منهجية لكي تكشف عن أوجه المقارنة في عمليات التكيف ، و أوضحت جوانب عديدة بين المهاجرين الى مدن مختلفة ، و كذلك قارنت بين خبرات جماعات تنتمي الى أقاليم مختلفة ، و قبائل متباينة في نفس المدينة . و أيضا عقدت مقارنات بين المهاجرين الذين يتحركون لمسافات محدودة و أولئك الذين يتحركون الى مسافات بعيدة عن القرية . و قارنت هذه الدراسات بين الذين يقومون بالهجرة الدائرية بين الريف و المدينة ، و أولئك الذين يقومون بالهجرة المرحلية .

و اتضح أن معظم هذه الدراسات تؤكد على استمرار انتقال العادات و التقاليد الريفية أو تعديلها و هذه تتعارض مع النظرة السلبية الى المدينة التي ترى أنها سبب تفكك الروابط و العلاقات ، و فقدان الطابع القبلي ، و فقدان الثقافة و هذه الموضوعات تركز عليها الدراسات الحضرية . و قد تبنى الأنثربولوجيون هذه النظرة لأنهم يألفون التقاليد و العادات التي تظهر في مواقع المهاجرين ، و التي

يسودها ما يعرف " بالتمركز الريفي" ، كما أن الأنثربولوجيين يسودهم اعتقاد في ضرورة استمرار الإستغراق الثقافي ، و قد تشكل عندهم هذا الإعتقاد نتيجة تأثرهم بالفكر الأنثروبولوجي الكلاسيكي .

مدخل المشلكة الرئيسية في الدراسات الأنثربولوجية الحضرية

يعتبر مدخل المشكلة الرئيسية في الدراسات الأنثربولوجية الحضريو وليد الظروف السياسية التي نتجت عن الإستعمار و الجماعات السياسية المسيطرة على المجتمعات النامية ، كما يعتبر استجابة لواجهة بعض المشكلات التي ظهرت في الولايات المتحدة الأمركية ، حيث يتناول هذا المدخل دراسة أحد المشكلات الرئيسية في المجتمع . و قد ظهر مدخل المشكلة الرئيسية من مصدرين ، أحدهما هو الأنثربولوجيا التطبيقية ، اذ أصبح من الأمور المقررة في الولايات المتحدة منذ أن بدأ علم الأنثربولوجيا في الظهور – أنه بالإمكان توظيف المعرفة الأنثروبولوجية في الأغراض العلمية المتمثلة في حل مشكلات الإنسان . و المصدر الثاني يظهر في تأثر الباحث المتخصص في الأنثربولوجيا الحضرية بالتراث التقليدي في علم الإجتماع الحضري ، الذي يؤكد على ضرورة دراسة بعض الموضوعات مثل الإنحراف الإجتماعي و جماعات الأقليا. بينما في الدراسات الأنثربولوجية يؤكد مدخل المشكلة الرئيسية على دور الطبقات السائدة و العوامل الإيكولوجية التي تؤدي الى ظهور مثل هذه المشكلات . و عموما فانه يمكن تحديد المشكلة الرئيسية التي تتناولها الدراسات الأنثربولوجية الحضرية مثل الأقليات العرقية ، و التدهور الحضري ، و استياء الجماهير . و يلاحظ أن هذه الموضوعات الثلاث يعاني منها المجتمع الأمريكي أكثر من أي مجتمع آخر ، و هذا ما جعل الأنثربولوجيون يهتمون بدراسة هذه المشاكل في المجتمع الأمريكي ، بينما توجد مشاكل أخرى تسود مجتمعات حضرية أخرى ، مثل تلك التي تظهر في مدن افريقية و أمريكا اللاتينية و مدن المجتمعات النامية عامة .

و يهتم بعض الأنثربولوجيون بمشكلة التوجيه التي ترتبط بالمتضامنات السياسية للبحث ، و يظهر ذلك في دراستهم لمشكلة " السكان الذين يعانون من الإضطهاد" . و يحاول الأنثربولوجيون مساعدتهم على تنمية تكنيكات و استراتيجيات للتكيف مع النسق الأساسي . بينما يقوم البعض الآخر من الأنثربولوجيين بدراسة نفس الجماعات ، و يعملون معهم من خلال تكوين اطارات مؤسسية لتحسين موقف هذه الجماعات . و يهتم كل من الإتجاهين بالمتضامنات السياسية في أبحاثهم ، و يشعر هؤلاء الأنثربولوجيون بالمسؤولية نحو الإخباريين الذين يتعاملون معهم ، و يتخذون موقف الدفاع عنهم . بينما تحاول البحوث التي تهتم بدراسة جماعات الأقليات و المنحرفين ، و السكان ذو الدخل المنخفض أن تتعرف على طبيعة تكوين هذه الجماعات و مشاكلهم و مواقفهم و طريقة حياتهم . و تعتبر مشكلة الفقر من المشكلات الهامة التي تحظى باهتمام الدراسات الأنثربولوجية و التي تحاول وصف سلوك و قيم الفقراء . و يعتبر أوسكار لويس من أبرز الأنثربولوجيين الذين اهتموا بدراسة الفقر ، و صاغ نظريته عن

ثقافة الفقر و قد أثرى الدراسات الإثنوجرافية الحضرية . و تعتبر البحوث التي أجريت على جماعات الأقليات ، و خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية الجوهر الأساسي للأنثربولوجيا الحضرية ، حيث تناولت كثير من الدراسات الأنثربولوجية مشكلة الأقليات في مضمونها الحضري .

و في ضوء تحديد الإطار النظري للأنثربولوجيا الحضرية الذي ظهر بوضوح في الولايات المتحدة الأمريكية ، لم تقتصر الدراسات الأنثبولوجية على المشكلات المجتمعية و الثقافية ، و انما اتجهت نحو دراسة المؤسسات الحضرية للتعرف على مدى صعوبة آداء خدماتها ، مثل المدارس و المستشفيات و مراكز التأهيل المهني و السجون . و تهدف هذه الدراسات الى التعرف على أفضل الوسائل لتحسين آداء وظائف هذه المؤسسات ، كما اتجهت أيضا نحو دراسة انحراف الجماعات التي تتصف طريقة حياتها أنها مناهضة اجتماعيا ، فتدرس البناء الداخلي للجماعة ة الأنماط المعيارية لأعضائها ، و ادراكهم المعرفي للعالم المحيط بهم و أيضا تدرس النثربولوجيا الحضرية أنماط السلوك الإنحرافي مثل الدعارة و المتجولون و ذلك من خلال الثقافات الفرعية .

و رغم تعدد الموضوعات التي يهتم بها مدخل المشكلة في الدراسات الأنثربولوجية الحضرية ، الا أنه قد ظهرت بعض الإنتقادات حول هذا المدخل فالباحثون يتناولون دراسة المشكلة من منظور ضيق و محدود ، و المفروض لكي يتحقق الباحث من أسباب المشكلات الحضرية ، أن يركز دراساته على القطاعات السائدة و التي تسيطر على المصادر الإستراتيجية و النظم الكبيرة في المجتمع . فالجماعات المضطهدة هي مشكة ناجمة عن الجماعة المسيطرة في المجتمع ، و لذلك فان التركيز عليها في الدراسة لا تكشف عن حقيقة المشكلة ، بل يجب الإهتمام بدراسة بيئة العمل السياسي ، و من خلال ذلك يستطيع الباحث أن يتعرف على الجوانب الحقيقية و الواقعية للمشكلة .

و يثير بعض الأنثربولوجيون أنهم يواجهون بصعوبات منهجية عند محاولتهم دراسة المشكلة في ضوء الحياة الحضرية ككل . فالأسباب التي تجعلهم يهتمون بدراسة الجماعات الدنيا دون دراسة طبقات الصفوة ، أنهم يستطيعون الوصول الى الجماعات الدنيا بسهولة و من ثم ييسهل دراستهم اثنوجرافيا ، بينما يصعب عليهم استعمال التكنيك الإثنوجرافي عند دراسة طبقات الصفوة في الولايات المتحدة الأمريكية و ذلك من خلال مواقعهم الطبيعية . و رغم هذه الصعوبات التي تواجه الأنثربولوجيين ، الا أن محاولاتهم لإجراء مثل هذه الدراسة لا تزال مستمرة . و في ضوء ذلك فان مدخل دراسة المشكلة في الدراسات الأنثربولوجية يجب أن يتجه الى معالجة المشكلة في ضوء العوامل البنائية التي تسود المجتمع .

المدخل التقليدي التحليلي في الدراسات الأنثروبولوجية الحضرية

تشتمل الأنثروبولوجيا الحضرية على مدخل ثالث يركز على المفهومات و النظرية أكثر من تركيزه على السياسية . كما يهتم بالبناء الحضري أكثر من اهتمامه بعمليات تكيف المهاجرين . و يعتبر هذا المدخل امتدادا للتراث الأنثروبولوجي التقليدي ، حيث يعطي اهتماما أكبر للبناء الإجتماعي ، و العمليات الإجتماعية و الثقافة و الإدراك المعرفي . و قد أثيرت حول هذه الموضوعات تساؤلات عديدة في المواقع الحضرية ، بهدف التعرف على نظرة الناس الى العالم الذي يعيشون فيه داخل المدن . و يوجه المدخل التقليدي التحليلي اهتمامه بدرجة أكثر نحو النظرية الأنثربولوجية في عمومها و خاصة نظرية القرابة و التنشئة الإجتماعية و دراسة المجتمع المحلي .

و تشير بعض الدراسات الأنثربولوجية الحضرية أن كثيرا من الأنثربولوجيين لم يتخلوا عن اهتمامهم التقليدي بدراسة القرابة كما تبدو في المدن . و ترتبط بعض هذه الدراسات بالدور التي تقوم به الروابط القرابية في عملية تكيف الفلاحين في المدينة . بينما يركز البعض الآخر في دراساتهم على دور القرابة في البناء الإجتماعي الحضري .

و يستخدم الأنثربولوجيون في دراساتهم طرقا عديدة ترتبط بالعلاقات البنائية للقرابة في الموقع الحضري ، و من أبرز هذه الطرق التي تستخدم في تحليل العلاقات الإجتماعية هي شبطة العلاقات الإجتماعية فالجماعات القرابية و شبكة العلاقات هي وحدات اجتماعية أولية ، و تؤثر بدرجة كبيرة في المعايير الإجتماعية و السلوك . و يرتبط بعضها ببعض لأن الفرد يختار بعض الأقارب من خلال شبكة علاقاته الإجتماعية .

و يهتم أيضا بعض الأنثربولوجيين بدراسة الجماعات الإجتماعية كمحاولة لفهم العملية الإجتماعية . و تعتبر مثل هذه الدراسات امتدادا للإهتمامات الأنثربولوجية التقليدية . و أجريت دراسات عن " الجماعات الإثنية " كوحدة للدراسة ، و افترضوا أن كل جماعة هي " ثقافة صغيرة " . و يعرف الأنثربولوجيون الجماعة أنها وحدة متعاونة منغلقة تتجدد عضويتها بالميلاد و تتشكل بالتزويد الثقافي . و قد سمح لهم هذا التعريف أن يستخدموا مفهوم الثقافة و التكنيك الإثنوجرافي .

و كذلك يهتم الأنثربولوجيون بدراسة جماعات الجيرة السكنية ، و يرجع هذا الإهتمام الى التراث الأنثروبولوجي الذي يدرس الروابط المكانية للجماعات السكنية . و من أمثلة هذه الجماعات سكان المناطق الحضرية المختلفة ، أو السكان ذو الدخول المنخفضة و التي تمثل وحدات مونوجرافية في الأنثربولوجيا الحضرية .

و يهتم أيضا المدخل التقليدي التحليلي باجراء بعض الدراسات في المدينة تدور حول بعض التساؤلات عن السياسة و الإقتصاد و الدين . كما يتناول دراسة أنماط القيادة و علاقات القوة في الجيرات السكنية الحضرية ، و البطالة و المهن الهاشمية ، و الطب الشعبي ، و الأساطير و الفلكولور ، و حفلات التكريس .

و رغم تعدد الدراسات التي اتبعت المدخل التقليدي التحليلي في المدينة ، الا أنها تعرضت الى كثير من جوانب النقد . و من أبرز جوانب النقد أن المدخل التقليدي التحليلي لم يكترث بتطوير المنظور الكلي في دراسة المجتمعات الصغيرة كما يبدو أنه من الصعب التركيز على الأسئلة التقليدية ، و دراسة طريقة الحياة في المدينة ككل ، أي بنفس الطريقة التي يستخدمها الأنثروبولوجي لا يستطيع أن يدرس القرابة في المدينة ككل ، و أيضا عند دراسة الثقافية الفرعية الإثنية كثقافات صغيرة منفصلة ، أو عند دراسة الجيرات السكنية كقرى منفصلة ، فان مثل هذه الدراسات لا شك أنها سوف تفتقد النظرة الكلية التي تهتم بالعلاقات الداخلية بين الأجزاء ، أي الأنماط المتجانسة في المدينة ككل . و عموما فان الإنتقادات التي وجهت الى المداخل الثلاث لا تقلل من أهميتها في الدراسات الأنثروبولوجية الحضرية .(محمد حسن غامري /الانثروبولوجيا الحضرية ، ص ص 03 الى21).

إسهام الأنثروبولوجيين في الدراسات الحضرية

استطاع الأنثروبولوجيين أن يساهموا في الدراسات الحضرية من خلال إجراء الدراسات الميدانية التي تركز على الدراسة الوصفية العميقة للوحدات الصغيرة داخل البيئة الحضرية كما يتعرف الأنثروبولوجيين من خلال هاه الدراسات على الأنشطة الروتينية اليومية ، و الأنماط السلوكية للناس في مواقفهم الحقيقية و يحدث ذلك من خلال إجراء الملاحظة بالمشاركة و الخبرات التي يكتسبونها من خلال العلاقات التي تتكون بينهم و بين الإخباريين و التي يطلق عليها علاقات وجها لوجه .

و أيضا يفضل الأنثروبولوجيين استخدام نظرة المواطن التي تحمل معنى الخبرات و القيم و المقولات المعرفية أو الإدراكية . ومن خلال المعلومات التي يحصلون عليها يمكن توظيفها في استنباط بعض التعميمات حول كيف ؟ ولماذا ؟ يتصرف الناس بهذه الطريقة ظ و كيف تتكون الجماعات و يستمر وجودها ؟ و كيف تحدث عملية التفاعل بين الجماعات ؟ و كيف تتأثر طريقة حياة هذه الجماعات بالمدن ؟ و يصف الباحث الأنثرووبولوجي من خلال الملاحظة المباشرة طرق الحياة التي تظهر في كثير من المواقف ، و لكنه لا يكتشف التناقض بين ما يقوله الناس و ما يقوموا به من أفعال ، أي الفرق بين الثقافة الحقيقية و الثقافة المثالية. و يقتضي ذلك ان يقوم الباحث بالتعرف على القواعد و المعايير من خلال الألفاظ و العبارات التي يذكرها الإخباري ، ثم مقارنتها بالسلوك الواقعي . فالتمييز بين الثقافة

الحقيقية و الثقافة المثالية شيء ضروري في دراسة المواقع الحضرية ، كما هو ضروري أيضا في دراسة القرية أو القبيلة .

و يظهر هنا أهمية عنصر الوقت المستغرق في الملاحظة ، فالباحث الأنثرووبولوجي لكي يستطيع ان يصف النمط السلوكي الثقافي ، يتطلب منه ان يقضي وقتا طويلا في تفاعل تام مع الاخباريين الذين ينتمون إلى ثقافة المجتمع الذي يقوم بدراسته . و يوضح لنا التراث الأنثرووبولوجي اذا اراد احد الأنثرووبولوجيين ان يصف في مجتمع تقليدي حفل زواج أو حفل ختان يجب عليه الا يقتصر ملاحظة ذلك من خلال حدث واحد فقط و إنما عليه ان يقوم بمشاهدة و ملاحظة اكبر عدد ممكن من الأحداث حتى يستطيع ان يتعرف على النمط السلوكي المتكرر ، و تحديد مدى تكراره و بذلك يمكنه ان يحدد النمط الحقيقي ن و أيضا يوضح لنا التراث الأنثرووبولوجي التقليدي ان الباحث الأنثرووبولوجي يحتاج ان يقضي وقتا طويلا في الدراسة الميدانية لكي يتعرف على الأنشطة المختلفة التي تحدث في المناسبات المختلفة . ففي المجتمعات التي تمارس الزراعة ، يوجد عديد من الأنشطة التي ترتبط بإعداد الحقول مثل الحرث و استنبات الزرع و الري و الحصاد ، كما ترتبط هذه الأنشطة أيضا بالنسبة للمجتمعات التي تعتمد في حياتها على الرعى ، و التي يسودها مناخ الجفاف فإذا كل التراث الأنثرووبولوجي التقليدي يحرص على استخدام هذه القواعد في الدراسات الأنثرووبولوجية ، فإن هذا التقليد أيضا يحرص عليه الأنثرووبولوجيون عند إجراء دراسات أنثروبولوجية في البيئة الحصرية ، فالباحث الأنثرووبولوجي يتواجد في الميدان أطول مد ممكنة ، حتى يمكنه ملاحظة الأحداث التي تتكرر ،و يتاح له أفضل إدراك السلوك المطى في المواقف المختلفة كما تتاح له فرصة الاستمرارية في فهم التغيير و لذلك تعتبر الدورة الزمنية في الموقع الحضري الصناعي لها أهميتها عند الدراسة المجاورة السكنية مثلا او الجماعة الاثنية المهنة الروابط المهنية او وحدة صغرى أخرى micro – unit و تظهر الأنشطة عادة على شكل دورة حيث توجد دورة يومية لتبادل العمل والشؤون المنزلية و أنشطة الفراغ كما توجد دورة أسبوعية للأيام الخاصة التي تظهر فيها بعض الأنشطة وكذالك الدورة الفصلية التي تشتمل على أيام العطلات و الأعياد و قضاء العطلات و التي عادة تحدث و تتكرر على أساس منتظم .

و يظهر أيضا الاهتمام التقليدي بضريرة الاستمرار الزمني عند دراسة دورة حياة الفرد في البيئة الحضرية و الباحث الانثر وبولوجى رغم انه يقضي وقتا طويلا في الدراسة الحقلية و جمع المادة الاثنوجرافية الا انه لا يلاحظ مباشرة التغيرات التي تحدث أثناء حياة الفرد ابتداء من الطفولة المبكرة و الطفولة المتأخرة و البلوغ ومرحلة الكبر ولكي يتحقق الانثروبولوجيون من التغيرات التي تحدث في هذه المراحل من النمو و يتعرفون على أنشطة كالانسان كاملة أثناء دورة الحياة فانهم يستخدمون مدخلين للحصول على معلومات منهم يقوم الانثروبولوجي في المدخل الأول بدراسة جماعة من الاطفال في مرحلة الطفولة الأولى ثم جماعة من الأطفال في مرحلة الطفولة المتأخرة ثم جماعة من البالغين و أخيرا يختار جماعة

من الكبار و يستطيع الباحث الانثرو بولوجي من خلال دراسة هذه الجماعات الحصول على صورة عن دورة النمو والتغيرات التي تحدث في حياة الفرد خلال هذه الدورة .

أما المدخل الثاني يستخدمه الباحث النثر وبولوجي مع البالغين فقط حيث يقوم بجمع تواريخ الحياة أي إعادة تجميع مراحل نموهم التغيرات التي تحدث في المراكز و الأدوار التي يقومون بها خلال مراحل حياتهم . وقد حرص الأنثروبولوجيون على أستخدام هذه المداخل في الدراسات الأنثروبولوجية الحضرية ، حيث يمكن من خلالها الحصول على نظره عامة واسعة عن استمرار السلوك الثقافي ، ووصف و تحليل حياة الأسرة من خلال دورات الحياة في أشكالها المختلفة .

و يواجه الأنثروبولوجيون عند دراسة البينات الحضرية بمشكلة الكلية و يرجع ظهور هذه المشكلة إلى حرص الأنثروبولوجيون على عدم التخلي على النظرة الكلاسيكية في دراسة المجتمع فالأنثروبولوجيون عند دراستهم للمجتمعات البدائية ، يهتمون بدراسة العلاقة بين أشكال الحياة السياسية و الاقتصادية و الإجتماعية ، لأن هذه الأشكال تمتزج فيما بينها بدرجة كبيرة ، كما أنه يوجه تساند وظيفي بين هذه الأشكال و لذلك عندما يتحدث

الأنثروبولوجيون عن مدى أهمية المدخل الكلي ، فإنهم يقصدون أن بنية الحياة في المجتمع البدائي تتداخل بعضها مع بعض الدرجة أنه يصعب وصف الأنشطة السياسية بعيدا عن وصف الجماعات القرابية و العائلية ، و المعتقدات الدينية و السحرية إذا يؤكد المنظور الكلي أن أشكال الحياة الاجتماعية تترابط بعضها مع بعض داخل نسق كلي ، و عندما اتجه

الأنثروبولوجيون نحو دراسة المجتمعات الحضرية أو بمعنى أخر عند دراسة المدينة ن وجدوا أن من خصائص الحياة الحضرية و خاصة المجتمعات الحضرية الصناعية أن العناصر النظمية كالأسرة و الحكومة و الاقتصاد و غيرها تنفصل بعضها عن بعض . و رغم ذلك ينظرون إلى وجود علاقة بين هذه الجوانب . وقد أدى الاهتمام المستمر الأنثروبولوجيون بفكرة الكلية و استخدامها في دراسة البيئة الحضرية جعلهم ينظرون إلى أي وحدة إجتماعية تخضع للدراسة في المدينة ، لابد أن تدرس من خلال وضعها داخل الإطار البيئي الأكبر . لذلك عندما الأنثروبولوجي الوحدات العائلية و الجيرات السكنية أو الجماعات الإثنية ، يتطلب منه أن يدرسها داخل النسق الأكبر للمدينة ككل . (محمد حسن غامري : الانثروبولوجيا الحضرية ، ص ص 36-40.)